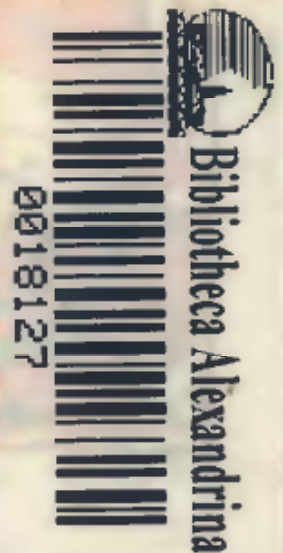


الف ليلة وليلة

حسين جوهير محمد أحمد برافق

أمين أحمد العطار

٤



www.arabiccartoons.net

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	399.9
رقم التسجيل	١٦٤١٣

الف ليلة وليلة

الجزء الرابع

الصيد والعفريت

NP/Me
108022
098
1/4

كتبه

محمد أحمد براق

حسن جوهري

أمين أحمد العطار



الطبعة الثانية

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

دارالمعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيليا يونكرز

www.arabiccartoons.net

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء الرابع

صفحة

- أبوقير وأبوصير ٥
 - تاج الملوك ٦٢
 - علاء الدين أبوالشامات ١٠٩
 - الصياد والعفريت ١٤٦
-

www.arabiccartoons.net



أبوقير وأبوصير

(١)

كان في سوق الإسكندرية صباغ اسمه أبوقير ، وحلاق اسمه أبو صير ، وكانا متجاورين : حانوت كل منهما لصق حانوت الآخر

وكان الصباغ أبو قير معروفًا بسوء الخلق ، ولؤم الطبع ، وانحطاط النفس ، لا يتصون عن عمل الشر ، ولا يأنف من إتيان الرذيلة ؛ فكان متحجر القلب ، صلد القواد ، أنانيًا ، لا يهتم من دنياه إلا إشباع بطنه بأشهى المأكولات ، ويسلك للحصول عليها طرقًا مختلفة شريفة ؛ وغير شريفة ، ولا يعنيه أو يسوءه ، أن يذمه الناس أو يعتبوا عليه ، أو يسلقوه بألسنة حديد ؛ فكل شيء من ذلك لا قيمة له عنده ، ما دام قد امتلأ بطنه ؛ ولذلك كان يحال على الفقراء والمساكين ، يسلبهم مالهم ،

ويَبْتَزُّ مِنْهُمْ دَرَاهِمَهُمْ بِوَسَائِلَ مُخْتَلِفَةٍ ، فَهُوَ مُحْتَالٌ نَصَابٌ ، بَارِعٌ فِي تَدْيِيرِ
الْمَكَايِدِ ، وَنَصَبُ الشَّرَاكِ .

فَقَدْ كَانَتْ مَادَّتُهُ مَعَ حُرْفَائِهِ الَّذِينَ يَسْوَ قُهُمْ سُوءُ طَالِمِهِمْ إِلَيْهِ كِي
يَصْبِغُوا مَلَابِسَهُمْ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُمْ أَجْرُهُ مُقَدِّمًا ، وَيَسْتَعْجِلَهُمْ دَفْعُهُ بِحِجَّةِ
اسْتِجْلَابِ بَعْضٍ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الصَّبَاغَةُ مِنْ أَلْوَانٍ وَغَيْرِ أَلْوَانٍ ، ثُمَّ يَأْخُذُ
النُّقُودَ ، وَيَصْرِفُهَا عَلَى مَا كَلَّهِ وَمَشْرَبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصْبِغَ لَهُمْ مَلَابِسَهُمْ ،
وَيَزِيدُ فَيَبِيعُ هَذِهِ الْمَلَابِسَ ، وَيَصْرِفُ ثَمَنَهَا كَذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ .

فَإِذَا مَا أَتَى صَاحِبُ الْمَلَابِسِ لَأْخُذِ مَلَابِسِهِ ، ابْتَسَمَ لَهُ ابْتِسَامَةً صَفْرَاءَ
هَادِئَةٍ سَاخِرَةٍ ، وَقَالَ لَهُ : أَحْضِرْ غَدًا تَجِدُ مَلَابِسَكَ مَصْبُوغَةً عَلَى
مَا تَشْتَهَى ، بِأَزْهِى الْأَلْوَانِ وَأَثْبَتِهَا .
وَيَحْضُرُ الْحَرِيفُ غَدًا ، فَيَسْمَعُ مَا سَمِعَهُ أَمْسَ مَعَ ابْتِسَامَةٍ أَعْرَضَ
مِنَ ابْتِسَامَةِ السَّابِقَةِ .

وَهَكَذَا يَتَوَالَى حَضُورُ الْحَرِيفِ مُطَالِبًا بِتَنَاعِهِ ، وَيَتَوَالَى عَلَى سَمْعِهِ
قَوْلُ الصَّبَاغِ ، وَيَتَكَرَّرُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ مَنَظَرُ الْإِبْتِسَامِ وَالْهَدُوءِ ، وَلَا يَسْتَشْفِئُ
مَا يَخْفَى وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ سَخَرِيَّةِ لِحْسَنِ نَيْتِهِ وَسَلَامَةِ قَلْبِهِ ، ثُمَّ يَبْدَأُ يَغْيُرُ فِي
نَوْعِ الْإِعْتِدَارِ ؛ فَهُوَ يُخْتَرِعُ أَسْبَابًا مُخْتَلِفَةً وَيَقْدِّمُ كُلَّ يَوْمٍ عُذْرًا ، وَيَطْلَعُ
بِحِيلَةٍ ، ثُمَّ يَضِيقُ الْحَرِيفَ بِهِ ذَرْعًا ، وَيَتَمَلَّكُهُ الضِّيقُ وَالْغَضَبُ . ثُمَّ
يَبْأَسُ فَيَقُولُ لَهُ :

— هَاتِ حَاجَتِي ، لَا أُرِيدُ صَبْغَهَا .

فيقول الصَّبَّاعُ : يَا أَخِي ، أَنَا فِي أَشَدِّ الْحَجَلِ مِنْكَ .
 فَيَسْتَفْهَمُهُ صَاحِبُ الْحَاجَةِ عَنْ سَبَبِ خَجَلِهِ مَعَ أَنَّهُ يَمَاطِلُهُ هَذِهِ
 الْمَاطِلَةُ الْكَثِيرَةُ ، الَّتِي جَعَلَتْهُ يَزْهَقُ مِنْهُ ، وَيَطْلُبُ حَاجَتَهُ .

فَيَقُولُ لَهُ : يَا صَاحِبِي ، لَقَدْ صَبَفْتُ لَكَ حَاجَتَكَ عَلَى أَحْسَنِ مَا تُحِبُّ ،
 وَعَلَقْتُهَا عَلَى حَبْلِ لَتَجِفُّ ، فَسُرِقَتْ ، وَأَنَا أَهْلُكَ كُلَّ مَرَّةٍ إِلَى غَدٍ ، فَلَا
 أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصَارِحَكَ بِالْحَقِيقَةِ ، فَلَمَّا أَحْرَجْتَنِي ، وَطَلَبْتَ حَاجَتَكَ ،
 اضْطَرَرْتُ إِلَى مَصَارَحَتِكَ اضْطِرَارًا ، وَأَنَا الْآنَ أَكَادُ أَذُوبُ
 أَمَامَكَ خَجَلًا

فَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الْحَاجَةِ يَمُنُّ بِثَوْرَةِ السَّلَامَةِ ، فَوَضَّ أَمْرَهُ إِلَى
 اللَّهِ وَانصَرَفَ .

وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمُ اشْتَبَكَ مَعَهُ فِي سَبَابٍ وَعِرَاكِ وَخَنَاقٍ ، ثُمَّ
 يَنْتَهِي الْأَمْرُ بِهِ دُونَ أَنْ يَنَالَ شَيْئًا مِنْ حَقُوقِهِ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ يَنْتَهِي بِتَدْخُلِ
 بَعْضِ النَّاسِ لَفَضِّ ذَلِكَ النَّزَاعِ الَّذِي يَنْتَهِي غَالِبًا بِالصُّلَاحِ ، وَبِتَنَازُلِ صَاحِبِ
 الْحَقِّ عَنْ حَقِّهِ ؛ وَإِذَا لَمْ يَتَنَازَلْ وَرَفَعَ أَمْرَهُ إِلَى الْحَاكِمِ ، فَإِنَّ الصَّبَّاعَ لَهُ
 حِيلٌ وَالْأَعْيَبُ يَسْتَطِيعُ بِهَا أَنْ يَمُوتَ عَلَى الْحَاكِمِ وَمَنْ حَوْلَهُ فَلَا
 يَحْكُمُ عَلَيْهِ

وَلَمْ يَزَلْ أَبُو قَيْرٍ سَادِرًا فِي هَذَا النَّعْيِ وَالْبَغْيِ ، لَا يَأْبَاهُ لِسُوءِ يَنَالٍ مِنْ
 شَمْعَتِهِ ، وَلَا تَعْيِيرٍ يَحُطُّ مِنْ كِرَامَتِهِ ؛ حَتَّى اشْتَهَرَ أَمْرُهُ ، وَشَاعَ خَبْرُهُ .
 وَحَذَّرَ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ مَعَامَلَتِهِ . فَكَفَرُوا عَنْهُ ، وَصَارَ لَا يَقْصِدُهُ

إلا من لا يعلم حاله ، وظلّ هو لا يقلع عن تلك العادة الذميمة ولا يكف عن سلب قاصديه تقوّدهم وملابسهم ، مُحْتالاً لذلك بشقّي الحيل ، منتهجاً له مختلف الأساليب .

وكان من حيله أن يذهب فيجلس داخل حانوت جاره الحلاق ، ويتخذّه كميناً له ، ويظلّ مترقباً لفريسة يسوقها حظّها العاثر إلى حانوته ؛ فإذا حضر إلى حانوته من أعطاه حاجة ليصبغها له ، أبصره من مكمنه ، فيبقى مخْتَفِياً داخل حانوت جاره ، حتى يمل صاحب الحاجة الانتظار وينصرف ؛ أما إذا جاء حريفٌ جديدٌ ، ومعه ما يريدُ صبغه ؛ خفّ إليه ، وسأله عن حاجته فيعطيه ما جاء به لصبغه ، فيسأله عن اللون الذي يُريد ، ثم يطلبُ منه أجره ؛ ويكونُ أخيراً أنصبه كنصيب الآخرين .

وهكذا استمرّ الحالُّ بهذا الصباغِ المحتال ، حتى أتاه يوماً رجلٌ مشاكسٌ قوى ، بنسيجٍ يصبغه له ، وظلّ يتردّد بعد ذلك على الحانوتِ ليستردّ نسيجه فلا يجد الصباغَ به ، ولا يامحُ له فيه ظلاً ، ويكون الصباغُ قد رآه ، فيبالغُ في الاختفاء والازدواء في حانوتِ جاره .

ولما تكرّر من الرجلِ الحضورُ إلى حانوتِ الصباغ ، وهو لا يجدُه ؛ ذهبَ إلى القاضي ، ورفع إليه أمره ؛ فبعثَ القاضي برسولٍ توجه معه إلى حانوتِ الصباغ ، فعائنه ، فوجده خالياً كما وصفه الرجلُ ، إلا منْ بمضٍ آنيةٍ قديمةٍ ، وبضعةٍ مواجيرٍ مكسّرة ، ولم يجدْ شيئاً ذا قيمة ، يعادلُ ثمنه نسيجَ الرجلِ .

فأوصد رسول القاضى الحانوت ، وسمّره وختمه بحضرة شهود
أشهدهم على ذلك .

وأخذ مفتاحه معه ، وقال للشجار المجاورين للصباغ :
أبلغوا الصباغ إذا أتى : أُننى أنا رسول القاضى ، حضرتُ إلى
دكانه ، وعائنتُ ما به ، ثم أغلقتُه على الصورة التى ترونها ، وهذا هو
المفتاح سأخذه مَعى ، وعليه أن يحضر ليأخذ مفتاح حانوته ، على أن
يأتى معه بحاجة هذا الرجل .

حدثَ هذا كله تحت سَمْعِ أبى قير وبصره ، ولم يجرؤ أن يخرج
من دكان صاحبه ليواجه خصمه ورسول القاضى .

فلما انصرف الرجلُ ورسولُ القاضى ، قال أبو صير لأبى قير :
ماذا دهاك ؟ ، وماذا أصاب عقلك ؟ فكل من أتاكَ بشئ تصبغه ،
أضعته عليه ، فما حيلتك مع هذا الرجل الجبار العنيد ؟ ! ، وأين ذهبَتْ
حاجته ؟ .

فقال أبو قير : يا جارى ، أنا أصدقك الحديث ، ولا أكذبك ؛ إنه
سُرِقَ مِنى ، وليس معى نقودٌ أشتري بدله .

قال أبو صير : أفكلُّ من يعطيك حاجةً تسرقُ منك ؟ ، ولماذا
كنتَ أنتَ مقصدَ اللصوصِ دونَ سائرِ الناسِ ، إني لا أؤمن بهذا
القولِ ، ولا أصدقك .

فقال أبو قير : أصدقك القول يا جارى ، فما سُرِقَ مِنى شئ .

فقال أبو صير : وما الذى تَفْعَلُهُ إِذْ نَبْتَاعُ الناس ؟ .

قال : كل من أعطاني حاجةً أَيْمُهَا وَأَصْرَفُ ثَمَنَهَا .

قال أبو صير ، مستنكراً ما قاله جاره : أَيْحِلُّ لَكَ اللهُ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ ؟ !

أما تَسْتَحْيِي ؟ .

قال أبو قير ، وهو يُظْهِرُ التَّاسِفَ والحُسْرَةَ : إِنَّمَا لَجَأْتُ إِلَى ذَلِكَ

يَا صَاحِبِي ؛ لِضَيْقِ ذَاتِ يَدَيَّ ، وَكَسَادِ حَالِي ، وَشِدَّةِ فَقْرِي .

فقال له أبو صير : أَمَّا اعْتَذَارُكَ عَنْ شِنَاعَةِ مَا تَعْمَلُ بِكَسَادِ الْحَالِ

وَالْفَقْرِ ، فَإِنِّي أَكْثَرُ مِنْكَ سُوءَ حَالٍ ، وَقَلَّةَ مَالٍ ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنِّي

صَادِقُ مَاهِرٌ فِي صِنَاعَتِي ، لَا يَقْصِدُنِي النَّاسُ ، لَمَّا يَظْهَرُ عَلَى دُكَانِي مِنَ

الْبَسَاطَةِ ، وَقَدْ كَرِهْتُ مِهْنَتِي وَزَهَدْتُ فِيهَا ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَقْدِرُونَ

جَوْدَةَ الصَّنِيعَةِ ، وَإِنَّمَا يُغْرِهُمُ الْمَنْظَرُ الْجَمِيلُ وَالْبَهْرَجُ الْخَدَّاعُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي

قَانِعٌ رَاضٍ بِمَا يَسُوقُهُ اللهُ لِي مِنْ رِزْقٍ ، قَلٌّ أَوْ كَثْرٌ ، وَأَعِيشُ بِهِ عَيْشَ

الْكُفَافِ ، فَلَا تَمْتَدِّ يَدِي إِلَى غَيْرِهِ ، وَلَا أَطْمَعُ فِي حَاجَةِ النَّاسِ .

قال أبو قير : يَا أَخِي ، إِذَا كُنْتَ كَرِهْتَ صِنَاعَتَكَ ، وَبَرِمْتَ بِهَا ،

فَأَنَا كَذَلِكَ قَدْ كَرِهْتُ صِنَاعَتِي ، وَبَرِمْتُ بِهَا ، فَهَلْ تَوَاقَفْتَنِي عَلَى أَنْ نُهَاجِرَ

مِنْ هَذَا الْبَلَدِ وَنَتْرَكَهُ وَنَسِيحَ فِي بِلَادِ اللهِ الْوَاسِعَةِ ، لَعَلَّنَا نَجْنِي بَعْدَ الْكَرْبِ

فَرَجًا ، وَنَجِدَ بَعْدَ الْمُسْرِيسِ ؟ وَإِنْ سِيَاحَتَنَا تُخَفِّفُ عَنْ أَنْفُسِنَا مَا نَحْنُ

فِيهِ مِنْ ضَيْقٍ ، وَتَنْفَسُ عَنَّا مَا نَشْعُرُ بِهِ مِنْ كَرْبٍ ، وَصِنَاعَتُنَا فِي يَدِنَا ، نَأْمَنُ

بِهَا شَرَّ الْعَوَزِ وَالْجُوعِ ، وَهِيَ نَافِعَةٌ رَائِجَةٌ فِي أَيِّ بَلَدٍ نَحِلُ بِهِ ؟ .

فصمت أبو صير ، يتدبرُ هذا القولَ ، ولكن أبا قير لم يُمهله ،
وأخذ يُزيِّنُ له حُسْنَ الازْتِحَالِ ، وجمالَ السَّيَاحَةِ فِي الْبِلَادِ ، حتى مال
أبو صير لهذا الرَّأْيِ ، وارتاح إلى العمل به .

وفرَّح أبو قير بموافقة أبي صير له على تنفيذ فكرته ، وأخذ
يُحَدِّثُهُ عن فوائد السَّيَاحَةِ فِي الْبِلَادِ ، وما يَجْنِيهِ الْإِنْسَانُ من وراء التنقلِ
هنا وهناك ، فإنه يَرَى ناساً غيرَ الناس الذين نشأ بينهم ، ويحدُّ لهم
أخلاقاً وعاداتٍ غير الأخلاق والعادات التي أَلْفَهَا ، وإن التنقلَ في
الْبِلَادِ يُنْسِيهِ هَمَّهُ ، ويسرِّي عنه ، ما يساورُهُ من حُزْنٍ وضَجَرٍ ؛ وقد
يُجَدُّ فسحةً من العيش فيزيدُ رزقه ، ويكثرُ ماله ، ويحسنُ حاله ؛ وقد
يستفيدُ علماً جديداً ، وآداباً جديدةً ؛ ثم هو بعد ذلك كله ؛ يرى
أصحاباً ، ويتخذُ أصدقاءً جدداً ، يستفيدُ منهم ، وينتفعُ بمعرفتهم .

ظلَّ أبو قير يُحَدِّثُ صاحبه عن السَّيَاحَةِ وفوائدها حتى تأكَّد أنه
اقتنع بضرورة السفر ، وأنه لن يثنيه عن عزمه أحد .

وانصرفَ كلُّ منهما يهَيِّئُ نفسه للسَّفر ، ويُعدُّ ما يحتاجُ إليه ؛
ثم أغلقَ أبو صير دكانه ، وسلمَ مفتاحه لصاحبه بعد أن أخذ منه عدةً
صناعته ، وحزمها مع متاعه ، الذي سيَحْمِلُهُ معه ؛ أما أبو قير ، فقد تركَ
دكانه مُعْلَقاً على حاله ، ومفتاحه عند تَابِعِ الْقَاضِي .

وحينما فرَّغا من الاستعداد ، وعزَّما على السَّفر ، قال أبو قير

لرَفيقه :

يا جارى ، لقد صرنا أخوين ، يجرى على كل منّا ما يجرى على أخيه
من خير وشر ، وغنى وفقر ، وسعد ونحس ، ونعيم وبؤس ؛ فنبغى أن
نقسم على أن من يشتغل منّا ، ويكسب ؛ يطعم العاطل ، وكل ما يتوفر
من نقود ندخره فى صندوق ، فإذا رجعنا ثانياً إلى الإسكندرية ، نقسمه
بيننا بالحق ، وياخذ كل منا نصفه .

قال أبو صير : أصبت ، وإنّى موافق على ذلك .

واقسم كل منهما ، ثم قرأ الفاتحة ، على أن ينفى بذلك العهد .

(٢)

ولما أصبحا ركبا باخرة من ميناء الإسكندرية ، وأقلعت بهما
وسارت تمخر عباب الماء ؛ وكانت الباخرة تضم عدداً كبيراً من
الركاب والبحّارة ؛ فقال أبو صير لرفيقه : يا أخى ؛ ليس معنا غير زاد قليل ،
لا يكفيننا مدة سفرنا فى البحر ، وأنا لا أرى فى المركب أحداً من
الحلاقين ، وسأعرض تنسى على الركّاب ، وأعرفهم أنى حلاق ، فلعل
أحداً منهم يدعونى لأحلق له ، فينالنا منه شئ يساعداً على معاشنا .

فقال أبو صير : نعم ، لا بأس بذلك .

ثم تئأب ، وتوسّد رأسه ، ونام .

ونفض الحلاق ، فأخذ عدته ، ووضع على كتفه قطعة من نسيج ،
تقوم مقام القوطة لفقره ، وشقّ طريقه بين الركّاب ، يُعرفهم بنفسه ،

ويخبرهم أن صناعته الحلاقة ؛ فناداه أحدُهم ، وطلبَ منه أن يخلقَ له ،
فلما انتهى ، أعطاه شيئاً من النقودِ . فقال الحلاق :

— يا سيدي ، ليس بي حاجةٌ إلى النقودِ ، ولو أعطيتني رغيفاً ،
لكان ذلك أنفع لي في هذا البحرِ الذي لا يُباعُ شيءٌ فيه ولا يُشترى .
فأعطاه الرجلُ رغيفاً ، وقِطعةَ جُبِنٍ ، وكوبَ ماءٍ عذبٍ ، فحملها
أبو صير إلى صاحبه ، وأيقظه من نومه ، وقال له : كلْ هذا الرغيفَ
بالجبنِ ، واشربْ هذا الماءَ .

فأخذها منه ، وأكلَ الخبزَ والجبنَ ، وشربَ الماءَ .

وعاد أبو صير ، فشئى بين الركَّابِ ، يعرضُ مهنته ، فصار الركَّابُ
يطلبونه ، فيخلقُ لهذا برغيفين ، ولذاك بقِطعةِ جُبِنٍ ؛ وهكذا حتَّى
أَمسى المساءُ ، وقد جَمَعَ قَدْرًا كبيراً من مُختلفِ الأطِعمةِ ، ومبلغاً لا بأسَ
به من النقودِ .

وأخذ ينسجُ على هذا المنوالِ كلَّ يومٍ : يخلقُ للركَّابِ ، ويحملُ
ما يُعطونه من أطِعمةٍ إلى صاحبه ، فيؤقظه ، فيأْكُلُ ، ثم يعودُ إلى
النَّومِ فينام .

وحلَّق أبو صير يوماً لِرُبَّانِ الباخرةِ ، فلما ناوَلَه أجرتهِ نقوداً ، طلبَ
منه أن تكونَ أجرتهِ طعاماً لِقَلَّةِ زادِهِ ، وما كان الزَّادُ الذي أصبحَ يأتيه
قليلاً ، ولكنه لجأ إلى ذلك لِشِدَّةِ نهمِ أبي قير ، وإتيانه على كلِّ ما يأتيه
به من طعامٍ مهما كثر .

فقال له الربان : تعالَ كُلَّ لَيْلَةٍ ، وتناولَ عشاءَكَ معي .

قال الخلاق : يَا سَيِّدِي ، إِنَّ مَعِيَ رَفِيقًا

قال الربان : لَا بَأْسَ ، أَحْضِرْهُ مَعَكَ ، وَتَعَشَّيَا عِنْدِي كُلَّ لَيْلَةٍ ،
وَلَا تَحْمِلَا هَمًّا مَادُمْتُمَا مَسَافِرَيْنِ مَعَنَا .

فذهب أبو صير ، وأيقظَ صاحبه ، وكانت معه أُجْرَةٌ مَا عَمِلَ فِي
يَوْمِهِ : مِنْ جُبْنٍ ، وَزَيْتُونٍ ، وَبَطَارِخٍ ؛ فَاسْتَيْقَظَ أَيُّوبُ قِيرَ ، وَمَدَّ يَدَهُ
إِلَى الطَّعَامِ لِأَنَّهُ كُلَّ وَهُوَ يَقُولُ :

— مَنْ أَيْنَ لَكَ كُلُّ هَذَا ؟ !

قال الخلاق : مِنْ فَيْضِ اللَّهِ ، وَلَكِنْ لَا تَأْكُلْ مِنْهُ الْآنَ ، وَاتْرَكْهُ
لِيَنْفَعَنَا فِي وَقْتٍ آخَرَ ، فَقَدْ حَلَقْتُ لَارِبَانَ ، فَطَلَبَ مِنِّي أَنْ تُرَاقِبَنِي كُلَّ
لَيْلَةٍ ، وَنَذَهَبَ إِلَيْهِ لَتَعَشَّى مَعَهُ

فقال أَيُّوبُ قِيرَ ، وَهُوَ لَا يَكْفُ يَدَهُ عَنِ الطَّعَامِ : دَعْنِي آكُلْ مِنْ
هَذَا الطَّعَامِ ، فَإِنَّهُ مَا زَالَ فِي رَأْسِي دُوَارٌ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ
أَنْ أَتْرَحَ مَكَانِي .

فقال أبو صير : لَا بَأْسَ ، كُلْ مِنْ هَذَا الطَّعَامِ .

فَأَقْبَلَ الصَّبَاغُ ، يَلْتَهُمُ الطَّعَامَ التِّهَامَا ، وَيَأْخُذُ قِطْعَةً الْخُبْزِ ، وَيَكْوِزُهَا
مِثْلَ الْكَرَةِ ، ثُمَّ يُثَلِّقُ بِهَا فِي قَبْهِهِ ، وَلَا يَكَادُ يَطْحَنُهَا بِأَسْنَانِهِ طَحْنًا
سَرِيعًا حَتَّى يَزْدَرِدَهَا اِزْدِرَادًا ، ثُمَّ يُتْبِعُهَا بِخَيْرِهَا ، وَهُوَ يَحْمَلِقُ بِعَيْنَيْهِ فِيمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ حَمَلَقَةَ الْمُسْمُورِ ، وَيَنْفُخُ نَفْخَ الثَّوْرِ الْجَائِعِ عَلَى الْعَلِيقِ .

وبيننا هو كذلك ، إذ حضرَ أحدُ الملاحين ، وقال لأبي صير :
 — يا هذا ، إن الربانَ يطبُّبك ورفيقك ، لتتناولا عشاءً كما عنده .
 فقال أبو صير لصاحبه : أتقوم معي إليه ؟ .

قال : أنا لا أقدرُ على المشي ، ولكنني أقدرُ على الأكل .
 فذهبَ الحلاقُ وحده ، فرأى الربانَ جالساً مع أصحابه ، وأمامهم
 مائدةٌ شهيةٌ حافلةٌ ، عليها نحوُ عشرينَ لونا من ألوانِ الطعام ، التي يجري
 لها ريقُ الشبمان ، فما بالك بالجوَّان ؟ ! .
 وكان الربانُ وأصحابه ينتظرونَ أبا صير وصاحبه ، فلما رآه مُقبلاً
 وحده : سأله : أينَ رفيقك ؟ .

قال : ياسيدي ، إنه مصابٌ بدوارِ البحر .
 قال الربانُ : لا بأسَ عليه ، سيزولُ عنه الدوارُ قريباً إن شاء الله .
 اجلسِ أنت ، وتعيش معنا .

وبعدَ أن فرغوا جميعاً من الطعام ، أخذَ الربانُ طبقاً من اللحمِ
 المشويِّ لم يُمسَّ ، ووضَعَ معه من كلِّ لونٍ شيئاً حتى صارَ ما أعدّه
 يكفي عشرةَ أشخاص من الأَكولينِ الثمينِ ، وأعطاه كله لأبي صير ،
 وهو يقولُ له : خُذْ هذا لصاحبك ، لكنني يتعشى به ، وطمئننه على
 نفسه ، فإنَّ دُوارَ البحرِ لا يستمرُّ طويلاً .

أخذَ أبو صير الطعامَ ، وذهبَ به إلى أبي قير ، فرآه لا يزالُ يطحنُ
 بأسنانه ما لديه من طعامٍ ، فقال له : أما قلتُ لك : لا تأكلُ هنا ،

واصحبني إلى الربان ، فإن خيرهُ كثيرٌ ؟ ؛ أنظر هذا الذي أرسله إليك ، وهو بعضُ ما بقي على مائدته .

فقال : ناولني إياه يا صديقي .

فأعطاه الطبقَ ، فأخذه بهفّةٍ شديدةٍ ، وكأنه لم يذق طعاماً في يومه ، واتقّصّ عليه انقيض السكّاب النهم ، أو السبع السكاسر .

فتركه أبو صير وذهب إلى الربان وأصحابه ، وشربَ معهم القهوة ، ثم عاد إليه فوجده قد أتى على جميع ما في الطبق ، وألقاه بجانبه فارغاً ، فأخذه وأعادَه إلى خَدم الربان .

وما زال هذا حالهم : يعمل أبو صير ، ويأكل أبو قير ؛ حتى رما المركبُ على ميناء إحدى المدن بعد نحو عشرين يوماً من مغادرتهم مدينة الإسكندرية .

فغادر أبو صير وأبو قير المركب ، ودخلا المدينة ، واستأجرا لهما حجرةً في خانٍ وخرج أبو صير ، فابتاع ما يلزمهما من فرشٍ قليلٍ متواضع ، وفرش الحجرة ..

ثم عادَ فاشترى ما يحتاجان إليه من لحمٍ وخُضرٍ وغيرهما ، وأوقد النار ، وطها الطعام .

أما أبو قير فإنه غطّ في نومٍ عميقٍ من وقت دخول الحُجرة ، ولما هبَّ أبو صير الطَّعامَ أيقظه ودعاه إلى الطَّعام ، فأقبلَ عليه كما دأته . ولما فرغَ ونفدَ الطعام قال لرفيقه : لا تؤاخذني . فإن الدَّوارَ ما زال يلزمني

إلى الآن ، ثم أدار ظهره إليه ، ونام .

ومرت الأيام ، وفي كلِّ صباحٍ يحملُ أبو صير عُدتَه ، ويَجُولُ في المدينةِ ، فيعملُ بما يسوقُه له الله من رزقٍ ، ويشتري ما يحتاجُ إليه هو ورفيقُه من الطعام ، ويمرُّ ، فيجدهُ نائماً فيوقفُه ، فيقبلُ على ما أتى به من طعام ، ويأْتِهْمُ ، ثم يعاودُه النومُ ، فينام .

وكما قالَ له أبو صير : اجلسُ معي قليلاً ، أو اخرجْ ، وتريضُ في المدينة ، فإنها مدينةٌ جميلةٌ بديعةٌ — يرد عليه : إن دُورَ البحرِ مازال يلازمني .

فتركه أبو صير ، ولا تسمعُ له نفسه أن يشتدَّ عليه في القول ، ويقسوَ عليه في المعاملة ؛ لأن ذلك يحزنُه .

وذات يومٍ مرضَ أبو صير ، ولم يستطعَ الخروجَ للسَّعيِ وراءَ رزقه أو شراء ما يلزمُه هو ورفيقه ، فكلف بواب الخانِ ابتياع ما يحتاجان إليه ، وظل على ذلك أربعةَ أيامٍ ، فاشتدَّ عليه المرضُ ، وغابَ عن وعيه .

فاستيقظَ أبو قير ، فلم يجدْ ما يأكلُه ، ووجدَ أبا صير على حاله من شدَّة المرضِ ، فنهضَ إليه ، وفتشَ ثيابه ، فوجدَها قليلاً من الدراهم ، فأخذها وغادرَ العُرفةَ ، بعد أن أغلقَ بابها على المريضِ ، وخرجَ من الخانِ ، دونَ أن يلاحظه بوابُ الخانِ ؛ ومضى إلى الشوقِ ، فابتاعَ ثياباً جديدةً ارتداها ، ثم سارَ يتفرجُ برؤيةِ شوارعِ المدينةِ ودكاكينِها ، فوجدَها مدينةً جميلةً كبيرةً ، ولكنَّ سكانَها لا يرتدون إلا الملابسَ ذاتَ اللونِ

الْأَيْضِ وَالْأَزْرَقِ ، فَمَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْمَجَّبِ ، وَذَهَبَ إِلَى دُكَانِ
أَحَدِ الصَّبَاغِينَ ، وَأَعْطَاهُ ثَوْبًا أَيْضًا ، وَقَالَ لَهُ :
— أُرِيدُ صَبْغَ هَذَا الثَّوْبِ ، فَبِكَمْ تَصْبِغُهُ ؟ .

قَالَ الصَّبَاغُ : بِعِشْرِينَ دِرْهَمًا .

فَقَالَ أَبُو قَيْرٍ : كَيْفَ ذَلِكَ ؟ إِنَّا نَصْبِغُهُ فِي بِلَادِنَا بِدَرَاهِمَيْنِ اثْنَيْنِ .

الصَّبَاغُ : إِنَّا هُنَا لَا نَصْبِغُهُ إِلَّا بِعِشْرِينَ دِرْهَمًا ، لَا تَنْقُصُ شَيْئًا .

أَبُو قَيْرٍ : وَأَيُّ لَوْنٍ تَصْبِغُهُ ؟ .

الصَّبَاغُ : أَصْبِغُهُ بِاللَّوْنِ الْأَزْرَقِ .

أَبُو قَيْرٍ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَصْبِغَهُ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ .

الصَّبَاغُ : لَا أَعْرِفُ أَنْ أَصْبِغَ بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ .

أَبُو قَيْرٍ : أَصْبِغُهُ لَوْنًا أَصْفَرًا .

الصَّبَاغُ : لَا أَعْرِفُ أَنْ أَصْبِغَ بِاللَّوْنِ الْأَصْفَرِ !

ثُمَّ صَارَ أَبُو قَيْرٍ يَعْذُّدُ لَهُ الْأَلْوَانَ ، لَوْنًا بَدَلًا لَوْنٍ ، وَالصَّبَاغُ يَقُولُ لَهُ :

لَا أَعْرِفُ .

وَأَخِيرًا قَالَ لَهُ : اسْمَعْ يَا هَذَا ، نَحْنُ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَرْبَعُونَ صَبَّاحًا ،

لَا يَزِيدُونَ وَاحِدًا ، وَلَا يَنْقُصُونَ وَاحِدًا ، وَإِذَا مَاتَ مَتًا وَاحِدًا ، نَعْلَمُ

وَلَدَهُ ، وَلَا نَعْرِفُ جَمِيعًا غَيْرَ صَبَاغَةِ اللَّوْنِ الْأَزْرَقِ

أَبُو قَيْرٍ : اعْلَمْ أَيْضًا أَنِّي صَبَّاحٌ ، وَلَكِنِّي أَعْرِفُ صَبَاغَةَ سَائِرِ

الْأَلْوَانِ ، وَأُرِيدُ مِنْكَ أَنْ تَسْتَعْدِمَنِي عِنْدَكَ ، وَأَنَا أَعْلَمُكَ صَبَاغَةَ جَمِيعِ

الألوان ، لتفخر بها على أفراد طائفتك وأبناء مهنتك .
 الصباغ : نحن لا نقبل دخول غريب في صناعتنا أبداً .
 أبوقير : وإذا فتحت لي مصبغة وحدي ؟
 قال : لا يمكنك ذلك أيضاً .

فتركه أبوقير ، وذهب إلى صباغ آخر ، فسمع منه نفس الكلام ،
 ولم يزل ينتقل من صباغ إلى صباغ ، يعرض نفسه عليهم ، حتى طاف
 بالأربعين صباغاً ، فلم يقبله أحد منهم أجيراً عنده ؛ فاشتد به الغيظ ،
 وصمم أن يشكو أمره إلى ملك المدينة ، فسأل عن مقام الملك ، وقصد
 إليه واستأذن في الدخول عليه ؛ فأذن له بعد أن ذكر لحاجب الملك
 الغرض الذي يرزى إليه من تلك المقابلة .

فلما مثل بين يديه ، قال : يا ملك الزمان ، أنا غريب ، وصنعتي
 الصباغة ، وقد حدث لي مع الصباغين هنا
 وقص على الملك ما حدث .

فقال الملك : وأى الألوان تصبغ أنت ؟

قال : أنا أصبغ جميع الألوان ، وأخرج من كل لون ألواناً ؛ فالأحمر
 مثلاً ، أستطيع أن أخرج منه ألواناً مختلفة ؛ فهذا أحمر وردي ، وهذا
 أحمر عنابي ، وهذا غير ذلك ؛ والأخضر كذلك ، أستطيع أن أخرج
 منه ألواناً مختلفة ؛ فهذا أخضر زرعي ، وذاك أخضر فسقي ، وذلك
 أخضر زيتي ، وهكذا .

وصار يعدُّ الألوان ، ويذكر ما يمكن أن يشتقَّ منها ، ثم قال :
 فأنتم ترونَ يا ملك الزمان — بعد هذا — أني أعرفُ كلَّ
 الألوان ، في حين أن صباغى مدينتكم لا يعرفون غير اللون الأزرق ،
 ومع ذلك فهم لا يريدون أن يقبلوني عندهم معلماً ولا أجيئاً .
 فقال الملك : لا بأس ، سأُنشئُ أنا لك مصبغةً ، وأعطيك مالاً
 تستعين به على عملك ، وما عليك منهم ، وكل من تعرَّضَ لك ، فيكون
 جزاؤه رادعاً ، وعقابه شديداً .

وَفَرِحَ الملك بهذا الصباغ الذى سيفتحُ في مدينته فتحةً جديداً .
 وأمرَ له بحلَّةٍ ثمينةٍ ومملوكين وجواد ، وأعطاه ألفَ دينارٍ ، وقال
 له : اصرف من هذا المال على نفسك ، حتى يتمَّ بناء مصبغتك .
 ثم أمرَ بإحضار البنائين ، وقال لهم : امضوا مع هذا الصباغ البارع
 وطوفوا به في المدينة ليعاينَ أسواقها وشوارعها ، والمسكان الذى يستحسنه
 ويقع عليه اختياره ؛ أقيموا له فيه مصبغةً كاملةً حسب رغبته وإرشاده ،
 ولا تخالفوه في كلِّ ما يُشير عليكم به .

وأمرَ الملك بإعداد مسكنٍ خاصٍّ لأبى قير ، فهبَّ له المسكنُ ،
 وفرشت حجراته بفاخرِ الفرش ، وزينَ بأنعم الأثاث ، وأقيم عليه الخدمُ
 والحشمُ ، وأجرى عليه الرزق الواسع .

وفى اليوم الثانى ركب أبو قير جواده ، وطاف بالمدينة كأنه أميرٌ
 عظيمٌ ، يتقدمه المهندسون ويسير خلفه البنائون ، وهو يتأمل فيما يمرُّون

به من أما كنَ و بنايات ، حتى وقعَ اختياره على مكان منها .
فقال : هذا مكانٌ طيبٌ ، أقيموا المصبغة هنا .

فطلب مرافقوه من صاحبهِ المسارعةَ إلى إخلائه ، وصحبوه إلى الملك ، فأعطاهُ ثمنَ ما أخلى ، وشرعَ المال من فورهم في بناء المصبغةِ على التصميمِ الذي أشارَ عليهم به أبو قير ، وحسبَ توجيهاته . ولم يمضِ قليلٌ حتى تمَّ بناء مصبغةٍ عظيمةٍ نفخةٍ ، ليس لها شبيهٍ في تلك المملكة ، وذهبَ مهندسُ المصبغةِ إلى الملك ، وأخبرهَ بانتهاء البناء وحضرَ أبو قير ، وذكرَ ما يحتاجُ إلى شرائه من أدواتِ الصباغةِ ومعدّاتها ، فأعطاه الملك أربعةَ آلاف دينار ، وقال له : خذْ هذا واجعله رأسَ مالك ، وأرني ثمرةَ مصبغتك وسأرسلُ إليك جملةً من الملابس ، تصبغها لي ، وتفقتيح بها عملك

فأخذ أبو قير المالَ ، وذهبَ إلى السوقِ ، وابتاعَ جميعَ ما تحتاجُ إليه المصبغةُ ، وأحضرَ من العمال ما يكفي لتشغيلها ، وهياً لكل منهم عملاً ، وأرشدَه إلى الطريقةِ التي يتبناها في أداءِ عمله ، وجعلَ لنفسه الإشرافَ عليهم جميعاً .

وقام العملُ على قدمٍ وساقٍ بالمصبغة ، وبعدَ وقتٍ قصيرٍ ، كانت الملابسُ التي أرسلها إليه الملكُ ، وهي تزيدُ على خمسمائةِ ثوبٍ من النسيجِ الأبيضِ ؛ قد نُشِرتْ لتجفَ فوقَ الجبالِ ، زاهيةٌ بمختلفِ الألوانِ البديعةِ الجميلةِ ؛ لأنَ أبا قير — على الرغمِ من مساويه — حاذقٌ بارعٌ في فنّه .

ورأى الناسُ عَجَبًا ، فكل من حَصَرَ أمامَ المصبغةِ ، وقفَ يتأملُ ما يرى : يرى ثيابا ملوَّنةً بالألوانِ عجيبية غريبة ، مَراوًا مثلها قط ، ترفرفُ كالأعلامِ في مدخلِ المصبغةِ ، يأخذ العينَ جالها ، ويهر النفسَ تعدُّ ألوانها .

ازدحم الناسُ حولِ المصبغةِ ، حتَّى سدَّوا الطريقَ إليها ، يتفرَّجون ويشاهدون ويسألون ، ويستفهمون ؛ فيخبرهم أبو قير بما غمَّ عليهم ، ويشرحُ لهم ما بَعُدَ عن فهمهم ويعرفهم الألوانَ وأسماءَها ، قائلا لهم : هذا اللونُ اسمه أَسْمَرُ ، وهذا اسمه أَخْضَرُ ، أما هذا فأَصْفَرُ .

أخذ الناسُ يستمعون له مشدَّوهين متعجِّبين .

وما انقَضُوا من حَوَله بعد ذلك إلا ليهرَّعُوا إلى منازلهم ليحضروا له ملابسهم ، أو إلى الأسواقِ لشراءِ ملابسٍ جديدة ، على أن يعودوا مسرَّعين — فيدفعوها إليه جميعا ، لصبغها بهذه الألوانِ الجميلة ، التي فعلتَ فيهم فعلَ السِّحْرِ ، وكادت تذهبُ بعقولهم .

وذهب أبو قير إلى الملكِ ، وقَدَّمَ إليه ما صبَّغَه له من الثيابِ ، فسُرَّ الملكُ من ألوانها ، وفرحَ فرحا شديداً ، وأنعمَ عليه بنعمٍ جَزِيلَةٍ .
وتوافدَ الكُبراءُ والأعيانُ والجنودُ إلى مصبغةِ أبي قير ، كُلُّ ثريدٍ صبَّغَ ما جلبه معه من ثيابٍ ، ثم يلقون إلى صاحبها بالذهبِ والفضةِ بغيرِ حسابٍ .

وذاعَ صيتُ المصبغةِ ، واشتهرتْ ، وسميتْ مصبغةَ السُّلطانِ .



أما صباغو المدينة ، فقد ذهبت ربحهم ، وساءت حالهم ، وبارت صناعتهم ، وانقضَّ الحرفاء من حولهم ، وصاروا يُمسُّون كما يُصْبِحُونَ ، ويصْبِحُونَ كما يُمسُّون ، لا يقصدُ إليهم أحد ، فيظلون جالسين جميعاً يومهم على أبواب دكاكينهم ، يتشاءمُونَ من شدة الكسل الذي حطَّ عليهم ؛ ولما طَالَ بهم الوقتُ وهم على تلك الحال ، لم يُطِيقُوا صَبْرًا ؛ فأتَوْا إلى أبي قير يستغفرونه ، ويَتُوبُونَ ليه ، ويرجونَه أن يَضُمَّهم إلى مصبغته عمَّالًا ، يأجرهم بما يشاء ؛ ليحصلوا رزقهم ، ويستطيعوا أن يُنفِقُوا على أسرهم ؛ فأبى ولم يقبل استغفاراً ولا توبةً ولا رجاءً ، وذكرهم بما فعلوه به حينَ عرضَ عليهم نفسهُ واحداً واحداً ، وكلهم رفض أن يأجره ولو بكسرة خبز .

ودرَّت المصبغة على أبي قير الأموال الكثيرة ، فعاش عيشَ المترفين واقتنى الخدم والحشم والجواري ، وأصبح من كبار الأغنياء .

(٣)

ونعوذُ لأبي صير ، لنرى ما حصلَ له بعد أن تركه أبو قير منشياً عليه في الحجرة وحيداً مريضاً ، وقد سلَّتهُ مامعه من نُقُود .

إنه ظلَّ على حالته من الغيوبة وارتفاعِ الحرارةِ والهذيان — ثلاثة أيام ، لا يقومُ أحدٌ على تمرِضه ، أو مُواساته والتخفيفِ عنه ، ولا يتذوق شيئاً من طعام أو شراب ولا يحسُّ أنه في الدنيا .

ثم انتبه بواب الخان لباب الحجرة المغلق ، وفطن إلى أنه لم يفتح منذ أيام ، وإلى عدم دخول أحد الرجلين أو خروجه ؛ فقال لنفسه : لعلهما سافرا في سر ، ليتخلصا من دفع أجر العُرْفَة ، أو لعله قد حدث لهما سوء ، فخرجوا ولم يعودا ، أو دخلا ولم يخرجوا .

فاقترب من باب العُرْفَة يتسمع ، فسمع صوتا خافتا ضعيفا ، يئن ويتوجع ، فطرق الباب فلم يسمع إلا ذلك الصوت ، فاحتال على فتحه ، وظل يمالج القفل حتى فتحه ، ودخل ، فأبصر أبا صير راقدا على الأرض ، وقد غدا ضعيفا خائرا ، باهت اللون ، شاحبا ؛ ولولا صوته الضعيف الخافت ، ولولا حركة عينيه — لظن أنه مات .

استعجب البواب حينما رأى أبا صير على هذه الحال ، فدنا منه ، وقال له : ما بالكَ ؟ ، وأين رفيقك ؟ .

فرد بصوت يكاد لا يسمع : لا أدري ، فما شعرتُ بنفسى إلا في هذه اللحظة .

ثم أشار إليه أن يأخذ من كيس تقوده شيئا ، ليشتري له به شيئا يُسَعِّفه به من دواء وطعام ؛ فأخذ البواب الكيس ، فوجده فارغا ، فقال له :

إن الكيس فارغ ، وليس به شيء من النقود .

فقال للبواب : أما رأيت رفيقي ؟ .

قال : مارأيت من ثلاثة أيام ، وقد ظننت أنكما قد سافرتما معا .

فَأَذْرَكَ أَبُو صِيرٍ أَنَّ أَبَا قَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ النُّقُودَ وَهَرَبَ .
بَكَى أَبُو صِيرٍ وَانْتَحَبَ ، وَقَالَ : إِنَّمَا هُوَ قَدْ تَرَكَنِي ، وَأَخَذَ نُقُودِي
وَهَرَبَ .

فَقَالَ الْبَوَابُ : لَا تَبْكِ ، لَا بَأْسَ عَلَيْكَ ، فَسَيَلْقَى جِزَاءَ فِعْلِهِ ، وَلَنْ
يُفْلِتَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ فَإِنَّهُ خَائِنٌ غَدَّارٌ ؛ لِأَنِّي كُنْتُ أُلَاحِظُ أَنَّهُ يَنَامُ لَيْلًا
وَنَهَارًا ، وَلَا يَسْتَقِظُ مِنْ نَوْمِهِ ، إِلَّا إِذَا عُذَّتْ إِلَيْهِ بِالطَّعَامِ ، فَيَنْهَضُ ،
وَلَا يَنْتَهَى مِنَ الْأَكْلِ حَتَّى يَنَامَ ، وَأَنْتَ تَسْمَى جَمِيعَ يَوْمِكَ لِتَحْصَلَ
رِزْقُهُ وَرِزْقُكَ ؛ ثُمَّ يَسْأَلُكَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا فِي جَيْبِكَ مِنْ مَالٍ ، وَيَتْرَكَكَ
مَرِيضًا مَنُشِيًّا عَلَيْكَ ؛ هَذِهِ خِيَانَةٌ إِنْ يَفْعَرَهَا اللَّهُ لَهُ ، فَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَيْأَسْ
مِنْ فَرَجِ اللَّهِ .

وَذَهَبَ الْبَوَابُ فَصَنَعَ لَهُ حِسَاءً ، وَأَتَاهُ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، فَلَمَّا تَنَاوَلَهُ ،
انْتَعَشَتْ نَفْسُهُ وَقَوِيَتْ رَوْحُهُ ، وَدَبَّ فِيهِ بَعْضُ النَّشَاطِ .

وَضَلَّ بَوَابُ الْخَنَانِ يَتَعَمَّدُ أَبَا صِيرٍ ، وَيَرْعَاهُ مَدَّةَ شَهْرَيْنِ ، حَتَّى
شَفِيَ ، وَأَبْلَى مِنْ مَرَضِهِ وَغَادَرَ فِرَاشَهُ ؛ فَصَارَ يَشْكُرُ بَوَابَ الْخَنَانِ عَلَى
مَعْرِفِهِ ، وَفَضْلِهِ عَلَيْهِ ؛ وَيَقُولُ لَهُ : سَأُجَازِيكَ — إِنْ قَدَّرَنِي اللَّهُ — عَلَى
مَا فَعَلْتَ مَعِيَ مِنَ الْخَيْرِ ، فَقَدْ أَحْسَنْتَ إِلَيَّ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ ، وَتَعَمَّدْتَنِي
وَأَنَا مَرِيضٌ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَسْكُرُ لِي فِيهِ مَنْ كُنْتُ أُؤْتِرُهُ عَلَى نَفْسِي
وَأَبْرَةٍ ، وَأَعْطَيْتَنِي عَلَيْهِ .

فَيَقُولُ الْبَوَابُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى شِفَائِكَ وَمَا بَنَيْتَ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ الْكَرِيمِ ،

أريد منك جزاء ولا شكوراً .

يخرج أبو صير إلى أسواق المدينة ، يُسْحَى وراء الكسب ،
 قدماء إلى المكان الذي فيه مصبغة أبي قير ، فرأى الناس متجمعين
 بن ، يتفرجون على الآواب الملوّنة المروضة بياب المصبغة ، فسأل
 منهم :

ما هذا المكان ؟ ومالي أرى الناس مزدحمين حوله ؟ فأى شئ فيه ؟
 فقال الرجل : إن هذه مصبغة السلطان ، وقد أنشأها لرجل غريب
 أباقير ، ونحن نتفرج على الألوان التي يصبغ بها الملابس ، فهي
 لا عهد لنا بها ؛ لأن الصبّاعين في مدينتنا لا يعرفون غير اللون
 ن .

ثم أخبره بما جرى بين أبي قير والصبّاعين ، وكيف شكاهم إلى
 ، وكيف أقام له الملك المصبغة .

ففرح أبو صير لما غدا عليه حال صاحبه أبي قير ، والتبس له العذر
 لم سؤاله عنه ، لكثرة ما يشغله ، ويزحم وقته كله ، حتى غاب
 له أن له صاحباً ، وأنه تركه مريضاً في الخان ؛ ولكنه متى رآه ،
 يحُبه ، ويكرمه ، ويدكر ما فعله هو معه : من رفق به ،
 رام له في أئناء بطالته ، أو يدكر على الأقل أن بينهما عهداً ، وأن
 ن يفي ببعض ذلك العهد .

فتقدم وشق طريقه بين الجمع المزدحم ، حتى وصل إلى المصبغة ،

فوجد أبا قير جالساً على حَشِيَّةٍ عالية فوق مصطبة بباب المصبغة ، يرتدى حلةً ثَمِينَةً ، لا يلبسُها إلا الأمراء ، وأمامه أربعة عبيد ، وأربعة بمالك يلبسون أفخر الملابس .

ورأى العمال داخل المصبغة يشتغلون ، ويستشيرون أبا قير ، ويعملون بأمره وهو مضطجع بين الوسائد لا يعمل شيئاً .
فتقدم أبوصير منه ، وهو مُوقِنٌ من أنه متى رآه فسيرحَّبُ به ،
ويفرحُ لمقدمه .

ولسكن ما وقعت عين أبي قير على أبي صير ، حتى قال : يا خبيث ،
كم من مرة قلت لك : لا تقف في باب هذه الخزانة ؟ أتريد سرقتي يا لص ؟
أقبضوا عليه يا عبيد .

فاندفع نحوه العبيد ، وقبضوا عليه ، وحينئذ نهض إليه أبو قير من
مجلسه ، ويده عصا غليظة ، وهو يقول للخدم :
أطرحوه أرضاً .

فطرحوه على الأرض ، فنزل عليه بعصاه ، يُشَبِّهُه ضرباً ، وهو
يقول : يا خائن ، والله إن رأيتك وافقاً بعد هذا اليوم بباب المصبغة ،
لأرسلتك إلى الملك ، ليقطع عنقك ؛ فأنصرف أبوصير مُبْتَلِساً حزيناً باكياً
يجرّ أذيال الخزي والمهانة .

وسأل الحاضرون أبا قير ، عما أتاه الرجل ، حتى أنزل به هذا العقاب
الشديد ، وضربه ذلك الضرب المبرح ؟

فقال : إنه لص ، يسرق أمتعة الناس ، فكم مرة سرق مني ثيابا ،
وكنت أتعرفُ عليه ، ويقرُّ أنه السارق ، ومع ذلك كنتُ أسامحه ، لأنه
رجلٌ فقير ، وأعطى الناسَ ثمن أمتعتهم ، وأنهاه بلطفٍ فلا ينتهي ،
وأقدمُ له النصيح فلا ينتصح .

فأفره الجميع على ما فعل ، وسبوا أباصير في غيبته ، وقالوا : إنه
يَسْتَأْهِل ما حلَّ به .

عاد أبو صير إلى الخزان ، كاسف البال ، سيئ الحال ، وجلس في
حجرتِه حزينا ، يفكرُ فيما فعله به أبو قير ، فلم يستطع أن يجد سببا
يدفع برفيقه الذي رعاه وخدمه أن يفعل به ما فعل .

وبعد أن أعياه جهد الفكر ، نهضَ وخرجَ يبحثُ عن حمامٍ عام ،
يستحم به ، ويفسلُ جسمه ، ويزيل عنه ما علق به من الأوساخ ، ولا
سيما أنه مضى عليه وقتٌ طويل لم يستحم ؛ فقابل رجلاً من أهل المدينة ،
وسأله عن الطريقِ الموصلِ إلى الحمام
فقال الرجل : وما يكونُ الحمام ؟

فدهش أبو صير لجهله ، وقال له : هو موضعٌ يغتسل فيه الناسُ ،
ويزيلون ما على أجسامهم من الأوساخ ، وهو يُعدُّ من طيبات الدنيا .

فقال الرجل : عليك بالبحر يا هذا ، فإن حمامنا الذي نغتسل فيه ،
وننظف أجسامنا بمائه — هو البحر ، وهو من أطيب طيبات الدنيا .
فقال أبو صير : إنما قصدتُ الحمام ، وما قصدتُ البحر .

قال الرجل : نحن لا نعرف الحمام ، ولا كيف يكون ، والذي لا ينتسل في منزله ينتسل في البحر ، والمالك نفسه يفعل ذلك .

فتمجّب أبو صير من هذا الأمر ، وأدرك أنه ليس بالمديّة من يعرف الحمام ، فحدّثه نفسه بالذهاب إلى الملك ، ويشرح له ميزة الحمام ، ويطلب منه أن يمينه على إقامة حمام بدينته .

وبعد أن اختمرت في نفسه الفكرة ، لم يتوان عن تنفيذها ، فقصد من ساعته إلى قصر الملك ، وطلب أن يؤذن له بالثول بين يديه .

فلما أذن له بمقابلة الملك ، قال له : يا ملك الزمان ، أنا رجل غريب ، وصنّاعتي حامي ، فلما حضرت إلى مدينتكم ، وأردت الذهاب إلى الحمام ، لم أجدها حتماً واحداً ، فتمجّبت من أن تكون مدينة جميلة مثل هذه المدينة — خالية من حمام .

فقال الملك مستفهماً : وما الحمام ؟

فأسهب أبو صير في وصف الحمام ، ومنافعه ، وميزاته ، وضرورة إنشائه ؛ فافتنّع الملك بكلامه ، وأعجب كثيراً بما صوّره له في وصفه .

وقال له : مرحباً بعقدك ، ولقد وافقتك على إنشاء هذا الحمام ، فافعل ما ترى ، وسأقوم بدفع جميع ما تطلب من نفقات لإقامته ، وأمر له بحلّة ثمينة ، وجواد وعبدّين ، وأربع جوار ، ومملوكين ؛ وهياً له داراً مفروشة ، وأكرمته أكثر مما أكرم الصباغ

وكذلك أمر البنائين بمصاحبتِهِ ، والطواف معه بالمدينة ، وفي
المكان الذي يقع عليه اختيارُهُ ، يشرعون فوراً في إقامة ما يطلبه منهم .
وأقيم الحمام في المكان الذي وقع عليه اختيارُ أبي صير ، وشُيِّدَتْ به
الأحواض والفساقي والمغاطس حسب إرشاده ، ونُصِبَت الحنفيات في
سائر أرجائه ، ثم نقش بأدق النقوش وأنجلها ، فجاء تُحفَةً رائعة ، تسرُّ
العَيْن ، وتبهج النفس .

وأخبر أبو صير الملكَ بتمام تشييدِ الحمام ، وبأنه لم يعد يمنع من تشغيله
إلا فرشه بما يكفل الراحة للمستعمين ، فأعطاه الملك عشرة آلاف دينار .
فأخذها أبو صير ، وابتاع ما يلزمُ الحمام من طنافس وحشايا ووسائد
وأغطية ، كما ابتاع كمية وافرة من القوط ، نثرها على المشاجب في
أرجاء الحمام .

وبعد ذلك أوقد الوقود في أتون النار ، وأجرى الماء ، فجري في
مجاربه حاراً وبارداً ، وازدحم الناسُ حول الحمام يشاهدون ويتفرجون
ويعجبون ، كما فعلوا حين تشييد مصبغة أبي قير من قبل .

واستفهم الناسُ عن كُنه الحمام وماهيته ، فشرح لهم صاحبه ما غم
عنهم ، وخبى عليهم ، ودعاهم إلى الدخول فيه ، والاستمتاع بنعيمه ،
ومباهجه ، فدخلوا زرافاتٍ زرافاتٍ ، يتلو بعضها بعضاً .

وكان أبو صير قد أحضرَ غلماناً لخدمة العملاء ، وعلمهم فن الحماميَّ
في التكبيس والتدليك ، فأتقنوا مهنتهم الجديدة أتم إتقانٍ ؛ فإذا ما دخل

التعميل الراغبُ في الاستحمام ساعده الفلام على خلع ملابسه ، وصحبه إلى أحواض الماء ، وقام بغسله وأرشده إلى مغطس الماء الساخن ، وعن المدة التي يسمح له بالمكث فيه ، وهكذا حتى ينتهي به أخيراً إلى الفراش الوثير الممدّ فوق المصاطب الفسيحة ؛ ليأخذ المستحم قسطاً من الراحة والاسترخاء عقب الحمام الحار ، ثم يعقب ذلك بتقديم الشراب الساخن . فإذا ما خرج المستحم بعد ذلك ، كان كأنه خارجٌ حقاً من جنات النعيم ، قد انتعش جسمه ، وخفّت روحه ، وصفت نفسه ، وشعر بكامل الراحة والشّور .

وانتشر خبر الحمام في أرجاء المدينة ، فقصده الناس من كل حدب وصوب ، وظلوا يستحمون فيه ، ويتمنون بمهاجه مجانا من غير أن يدفعوا أجرة لاستحمامهم مدة ثلاثة أيام .

وفي اليوم الرابع كان قد تم تجهيز الحمام ، وإعداده ، وفرشه بفاخر لآثاث ، وتجميله بأجل الرياش — ذهب أبو صير إلى الملك ودعاه لمشاهدته ، فذهب الملك إليه ، يحفّ به رجال حاشيته ، وتفرجوا به ، فأعجبهم أيما إعجاب .

وقابله أبو صير وغلمانه ، وأسرعوا جميعاً إلى خدمته ، وخدمة من معه من رجال دولته .

وصاحب أبو صير الملك إلى مقصورة نخمة ، وقام هو على غسله وتذليكه وتكبيسه ، وكان قد أعدّ له ماء ممزوجاً بالعطر وماء الورد ، وأخذ

يَصْبِيهِ عَلَيْهِ صَبًّا ، ثُمَّ صَاحَبَهُ إِلَى الْمَغْطَسِ ، وَمُسَاعَدَهُ عَلَى النُّزُولِ إِلَيْهِ ، وَبَعْدَ
فَتْرَةٍ خَرَجَ الْمَلِكُ وَقَدْ انْبَسَطَ ، وَرَطَّبَ جِسْمَهُ ، وَشَعَرَ بِنَشَاطٍ فِي بَدَنِهِ ،
وَالشَّرَاحِ فِي قَلْبِهِ ، وَانْتَمَاشٍ فِي نَفْسِهِ ، وَكَأَنَّمَا الدُّنْيَا قَدْ انْفَسَحَتْ لَهُ كُلُّهَا
فَلَيْسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَسْعَدُ مِنْهُ ، وَبَعْدَ أَنْ ارْتَدَّى مَلَابِسَهُ ، اضْطَجَعَ
فَوْقَ الْوَسَائِدِ ، يَتَلَذَّذُ بِالرَّاحَةِ ، وَيَسْتَمْتِعُ بِالشُّرُورِ ، وَتَطْيِيبِ نَفْسِهِ
بِالْهُدُوءِ ، وَبَعْدَ أَنْ أَحَسَّ أَنَّهُ نَالَ مِنْ ذَلِكَ قَسْطًا كَبِيرًا نَهَضَ مُبْتَهِّجًا ،
وَاسْتَدْعَى الْحَمَامَىَّ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ : أَهَذَا هُوَ الْحَمَامُ يَا أَبَا صِيرٍ ؟

قَالَ أَبُو صِيرٍ : نَعَمْ يَا مَوْلايَ ، هَذَا هُوَ الْحَمَامُ .
قَالَ الْمَلِكُ : حَقًّا ، إِنَّ مَدِينَتِي لَمْ تَكُنْ مَدِينَةً كَامِلَةً الْبَهْجَةِ وَالْأُثْبَةِ
إِلَّا بَعْدَ هَذَا الْحَمَامِ : فَإِنَّهَا بِإِنْشَائِهِ اسْتَكْمَلْتُ شَيْئًا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَسْتَفْنِي
عَنْهُ مَدِينَةٌ يَحِبُّ مَلِكُهَا أَنْ يُوَفِّرَ لَشَعْبِهِ فِيهَا أَسْبَابَ النِّعَمِ .
كَمْ تَأْخُذُ أَجْرَةً عَلَى الْفَرْدِ الْوَاحِدِ يَا أَبَا صِيرٍ ؟

قَالَ أَبُو صِيرٍ : الَّذِي تَأْمُرُ بِهِ آخُذُهُ يَا مَلِكُ الزَّمَانِ .
قَالَ : سَأَمُرُّكَ بِأَلْفِ دِينَارٍ . وَكُلُّ مَنْ يَفْتَسِلُ عِنْدَكَ تَتَقَاضَى مِنْهُ
أَلْفُ دِينَارٍ .

فَقَالَ أَبُو صِيرٍ : عَفْوًا يَا مَلِكُ الزَّمَانِ ، إِنَّ النَّاسَ لَيْسُوا سَوَاءً ، فَفِيهِمْ
الْغَنَى ، وَفِيهِمْ الْفَقِيرُ ، وَالْفَقِيرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ أَلْفِ دِينَارٍ ؛ وَلَوْ أَخَذْتُ
أَلْفَ دِينَارٍ مِنْ كُلِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَحْمَ عِنْدِي لَكَسَدَتْ حَالُ الْحَمَامِ
وَانصَرَفَ النَّاسُ عَنْهُ ، وَلَمْ يَقْصِدْهُ أَحَدٌ .

قال الملك : وماذا تريد أن تفعل ؟ .

قال : أجمل الأجرة مرتبطة بالمقدرة ، فكلُّ على حسب حاله ، ومن يقدر على شيء يدفعه ، والذي تسمح به نفسه يعطيه ، فلا تأخذ من إنسان إلا ما يطيقه . فإذا فعلنا ذلك يقبل الناس على الحمام ، ويصير له شأن عظيم . أما الألف الدينار فهي عطية الملك ، ولا يقدر عليها أحد . فأمر الحاضرون على كلام أبي صير ، وقالوا : إنه الحق يا ملك الزمان . أعجب الملك من قوله ، ولكنّه قال لرجاله : إنما هو رجل غريب فقير ، وإكرامه واجب علينا ، وقد فعل لنا شيئاً عظيماً : فأنشأ هذا الحمام الذي مارأينا ولا رأيت مدينتنا مثله .

فقال كبار الحاضرين : نعم إن إكرامه واجب ، ولكنّه من ممالك الزمان جيل ، وليس واجباً على الفقير لأنه غير مُستطيع ، بل إن إكرام الفقير نفسه برّ وفضل من ملك الزمان ، ومن مظاهره العمل على تخفيض أجرة الحمام .

فقال الملك : صدقتم ، ولكني أطلب منكم أتم معاشر أ كابر الدولة أن يعطيه كل منكم في هذه المرة مائة دينار ومملوكاً وعبدًا وجارية . قالوا : سمعاً وطاعة ، سنعطيه جميعاً ذلك ، على أن يعطيه كل من دخل بعد ذلك اليوم ما تجود به نفسه .

قال الملك : لا بأس .

فأعطاه جميع الحاضرين ما أمر به الملك ، كما أعطاه الملك عشرة آلاف

دينار وعشر ممالك ، وأعطاه مثلها من الجوارى والعبيد .

فتقدم أبو صير ، وقبل الأرض بين يدي الملك ، وقال : أيها الملك السعيد ، صاحب الرأي الرشيد ، والفكر السديد ؛ أي مكان يستعنى بهؤلاء الممالك والجوارى والعبيد ؟ .

قال الملك لكبير مهندسيه : ابن له قصرًا فخماً ، وأثَّه بأجل الأثاث وأفخر الرياش ، ليقيم فيه هو وعبيده ومماليكه وجواريه ؛ ومجمل ولا يُتَطى ؛ فقال كبير المهندسين : سمعاً وطاعة يا ملك الزمان .

ثم توجه الملك إلى أبي صير وقال له : أعلم أني ما أمرتُ بدفع هذا المال إليك إلا ليكون لك ثروة عظيمة ؛ لأنك غريب ، وربما كان لك أهلٌ وأولاد ، تشتاق إلى رؤيتهم ، وترغبُ في السفر إليهم ، فنكون بذلك قد وهبنا لك شيئاً تستعين به إذا ما عدت إلى وطنك .

ولملك تستعجلُ فترسل إليهم من ذلك المال الذي وهبناه لك ما يقدرُون به على مواجهة تكاليف الحياة ، ويدفعون به عن أنفسهم قسوة العوز والحاجة ؛ ثم تستطيع في الوقت نفسه أن يكون تحت يدك مالٌ تنفقُ منه على نفسك وخدمك ، وعلى حمامك وقصرك .

فقال أبو صير : يا ملك الزمان ، إن هؤلاء الممالك والجوارى والعبيد إنما يصلحون للسلوك ، وإنني إن استطعتُ أن أنفق عليهم كان ذلك مما أغدق على مولاي ، فإن دخلتُ بعد ذلك بهما كثر لا يكفي للإتيان عليهم في ما كلهم ومشرَبهم وملبسهم ، ولو كنتُ — أعزك الله — أمرتُ لي

بمالٍ أكثر ، لكان ذلك خيراً لي .

فضحك الملك ، وقال : والله إنَّكَ لَعَلَى حَقٍّ ، فقد صاروا جيشاً جرَّاراً ، وأنت لا طاقةَ لك بالإتفاق عليهم ، والكنِّي سأخذهم منك على أن أعطيك عن كلِّ واحدٍ منهم مائةَ دينارٍ ، فهل يُرضيك هذا ؟
قال أبو صير : نعم ، إنَّه يُرضيني ياسيدي .

فأمر الملك خازنَ بيتِ المال أن ينقذَ أبا صير عن كلِّ عبدٍ ومملوكٍ وجاريةٍ مائةَ دينارٍ ، فنقذه المال الذي أمر الملك به .

ثم قال الملك لرجال دولته : كلٌّ من له جارية أو عبد أو مملوك ، فليستردّه هدية مني .

فامتلأوا ، وأخذ كلٌّ منهم عبده ومملوكه وجاريته .

وفي صباح اليوم الثاني ، أرسل أبو صير مُنادياً ينادي في المدينة :
« كل من دخل الحمام ، واغتسل — لا يدفع إلا ما تجود به نفسه ،
ومن كان فقيراً مُعسراً فإنه يستحم بلا أجر » .

فأقبل الناس على الحمام أفواجا ، يفتسلون ويستحمون ، والقادرون منهم يضمعون في صندوق أعدّه أبو صير للنقود ما تجود به نفوسهم ؛
فما أمسى المساء حتى امتلأ الصندوق بالنقود ؛ لأنَّ الناس أقبلوا على الحمام لشدة استغرابهم ، ولأنَّه جديدٌ عليهم ، وكل جديد يسمع به الإنسان يحبُّ أن يراه ، وخاصة أنهم علموا أن ملكهم ذهب إلى الحمام ؛ وقدّر صاحبه ، وفرح به ، وأجزل له العطاء ؛ فكنت تراهم يذهبون إليه جماعات

جماعات ، وعند خُروجهم يضعون في الصُّندوق ما يستطيعون ، وكان أبو صير يلقاهم بالترحاب ، ويودّعهم بالبشر والسرور .
ولما كثر حديثُ الرجال والنساء عن الحمام ، أبدت الملكة رغبتهَا في رؤيته ، والاستحمام فيه .

فلما بلغَ أبو صير ذلك قسمَ الوقت بين الرجال والنساء ، فجعلَ الاستحمام من الصباح إلى الظهر للرجال ، ومن الظهر إلى الغروب للنساء ، وعلمَ بعضَ الجوارى خِدمةَ المُستحمات فصرنَ وصيفاتٍ ماهرات .
عرفَ الملكُ ما فعله أبو صير ، فسرّه حسنُ تصرُّفه ، وجميلُ تدبيره ، وأذنَ للملكة أن تذهبَ إلى الحمام في الوقتِ المَعْدَّ للنساء ؛ فلما عرفَ ذلك أبو صير ؛ أخلى الحمام من الرجال جميعا ، حتى مِن ممالكه وعبيده وخدمه ، ولم يَبْقَ فيه إلا المواشط اللّائِي استعدَدْنَ لاستقبال الملكة ووصيفاتها

ولما حضرت الملكة سُرّت كثيرا من الحمام ونظامه ، ووهبت مواشطه كثيرا من الهبات .

وخرجت وكلُّها إعجابٌ بالحمام ، فأثنت على صاحبه ، وعلى القائِلاتِ عليه ، وأشادت بمناعمه ؛ وشاعَ بين الناس أن الملكة مسرورةٌ كل السرور مما رأت وشاهدت ، فأحبت النساء أن يذهبنَ إلى الحمام كما ذهبت الملكة ، ووفذنَ عليه جماعات جماعات كما فعلَ الرجال ، وزحمنَ ردهات الحمام وأنهاءه وحجراته ، وضافت عنهن مغاطسه ، واكن حُسنَ النظام جعلهنَّ



يَسْتَحْمِنَ مُسْتَرِيحَاتِ هَانِثَاتِ نَاعِمَاتِ .

وأصبح أبو صير من كبار الأغنياء ، وانتثر الذهب بين يديه فائضا
عن حاجته ، وصار ذا مكانة صرموقة بين وجهاء المدينة وكبرائها ؛ وجميع
أفراد حاشية الملك أصبحوا من خاصة أصحابه .

واتفق يوما أن قصد بحارُ الملك إلى الحمام للاستحمام ، فخدمه أبو صير
نفسه تكريما له ، فلما هم بالانصراف أراد أن يدفع إلى أبي صير مبلغا
من المال ، فرفض أبو صير وأصرَّ على ألا يأخذ منه شيئا .

فخرج البحار وهو في حيرة ؛ لأنَّ أبا صير حمَّله جميلا عدده كبيرا ،
وفكر في أن يرده له جميله وهداهُ تفكيره إلى أن يُعده هديةً يهبها إلى
أبي صير ، يرد بها صنيعه ؛ أو يقدم له خدمةً نظير لطفه وإكرامه وبره .

(٤)

تناثرت حول مسامع أبي قير أخبارُ الحمام الذي أنشأه الملك ، ومقدارُ
تهافتِ الناس عليه ، وإعجابهم به ، ومدحهم له ؛ فذكره ذلك بحجومات
الإسكندرية ، وعقد عزمه على الذهاب للاستحمام فيه ، فلبس أنحر
اللباس وركب جوادا مطهما ، وأخذ معه أربعة ممالك ، وأربعة عبيد
يسرون من بين يديه ومن خلفه .

فلما وصل إلى الحمام طالعه رائحةُ العودِ والنَّد ، ورأى الفناء يزخر
بمجموع الناس : فهؤلاء داخلون وهؤلاء خارجون ، وأولئك واقفون

يَنْتَظِرُونَ دَوْرَهُمْ ، فَنَفَذَ إِلَى الدَّخْلِ ، فَشَاهَدَ الْمَصَاطِبَ وَقَدْ امْتَلَأَتْ بِأَكْبَرِ
رِجَالِ الدَّوْلَةِ ، يَحْتَسُونَ الْأَشْرِبَةَ السَّاخِنَةَ ، وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ وَيَتَفَكَّهُونَ ؛
فَسَرَّتْ نَفْسَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ ، وَأَعْجَبَتْهُ مَظَاهِرُ الْعَظْمَةِ وَالْأَبْهَةِ الْبَادِيَةِ
عَلَى الْحَمَامِ ، كَمَا أَعْجَبَهُ جَمَالُ التَّنْسِيقِ ، وَحَسَنُ النِّظَامِ ؛ فَخَيَّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَرَى
أَفْخَمَ حَمَامٍ فِي الْإِسْكَندَرِيَّةِ .

وَفِيمَا هُوَ يَجُولُ بِنَظَرِهِ فِي أَرْجَاءِ الْمَكَانِ ، وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَى أَبِي صِيرٍ
الَّذِي كَانَ جَالِسًا بِجَوَارِ الصَّنَدُوقِ الْمَدَّةِ لِلثَّقُودِ ، وَقَدْ ارْتَدَى حَلَّةً تُوْحِي
إِلَى مَنْ يَشَاهِدُهَا بِعَظِيمِ ثَرَاءٍ صَاحِبِهَا ؛ وَمَا لَمَحَهُ أَبُو صِيرٍ حَتَّى خَفَتْ إِلَيْهِ
مَرْحَبًا ، وَقَدْ فَرَّحَ بِهِ فَبَادَرَهُ أَبُو قَيْرٍ مَعَاتِبًا :

أَهَذَا شَرَطُ أَوْلَادِ الْحَلَالِ ؟ !

أَأَفْتَحُ لِي مَصْبَغَةً وَأَصِيرُ غَنِيًّا ، وَقَدْ تَعَرَّفْتُ بِالْمَلِكِ ، وَسَائِرِ
الْكِبَرَاءِ ، وَسَعَيْتُ إِلَى السَّعَادَةِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ؛ وَأَنْتَ لَا تَأْتِي إِلَيَّ ،
وَلَا تَسْأَلُ عَنِّي ، أَلَا تَقُولُ أَيْنَ رَفِيقِي ؟ !

أَنَا أَفْتَشُ عَنْكَ ، وَأَبْعَثُ عِبِيدِي وَمَمَالِيكِي لِلْبَحْثِ عَنْكَ دُونَ جَدَّوَيَ
وَدُونَ أَنْ نَعْتَرِكَ عَلَى أَثَرٍ ، أَوْ يُرْشِدُنَا أَحَدٌ إِلَى مَكَانِكَ .

لَقَدْ عَجَزْتُ وَيَسَّيْتُ ، وَرَجَعْتُ أَنْتَ قَدْ رَجَعْتَ إِلَى
الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَطَنِنَا .

فَقَالَ أَبُو صِيرٍ . وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الْعَجَبُ مِنْ كَلَامِهِ : أَمَا جِئْتُ إِلَيْكَ ،
فَاتَهَمْتَنِي بِأَنِّي لَصٌّ ، وَضَرَبْتَنِي ، وَفَضَحْتَنِي بَيْنَ النَّاسِ ؟ !

فأظهر أبو قير الأسف والكدر ، وقال : ما هذا الكلام ؟ أنت الذى ضربتُك ؟

فقال أبو صير : نعم ، هو أنا .

فأقسم له أبو قير بالآيمان المغلظة أنه ما عرفه ، ثم قال : إنما كان هناك رجل يُشبهك شكلاً ولوناً وطولاً وملبساً ؛ يأتى كل يوم ، ويسرق ملابس العملاء ؛ فظننتُ أنك هو ؛ لأنى بمجرد وقوع نظرى عليك لم أفكر إلا فى ألا تتقام من هذا اللص الذى يُزعجنى ويُزعجُ حرقائى بسرقة ملابسهم ، وإحراجى معهم ؛ ويجوز يا أخى أنى لو كنتُ تمهلُ قليلاً وأنعمتُ النظر فى وجهك وملابحك — لعرفتُك .

وأخذ يضربُ كفّاً على كفٍّ ، ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، قد أسأنا إليك يا أخى والله ولكن ؛ ياليتك عرفتنى نفسك ، وقلت لى : « أنا فلان » ؛ فالعيبُ عندك لأنك لم تُخبرنى ، فقد كنتُ أنا مشغولاً عن التأمل فىك من كثرة الأعمال .

فقال أبو صير ؛ ولم تفارق شفتيه ابتسامة اللقاء : ساحتك الله يارقيق وغفر الله لك يا صديقى ؛ وما كان هذا إلا مُقدّراً لى . أدخل ، وأخلع نيا بك ، وأستعِم يا أخى .

لم يسارع أبو قير إلى الحمام ، ولكنه ظلّ يحدث أبا صير ، ويسأله : ومن أين لك كل هذه السعادة يارقيق ؟

قال أبو صير : الذي فَتَحَ عليكَ فَتَحَ عليَّ ، فقد قصدتُ الملكَ ،
وخطبتُهُ في شأنِ إقامة الحمام ، فأمر لي ببناؤه .

فقال أبو قير : إن لي صلةً قويةً جدًا بالملك ، وسأتحدثُ إليه في
شأنِكَ ، وأوصيه بك خيرًا ، كي يزيد في إكرامك ، ويُبالغَ في العطف
عليك .

فقال أبو صير : إنَّ اللهَ معي ، وقد حبَّاني الملكُ بمطفٍ كبيرٍ ، هو
ورجالُ دولته ، وأكرموني ، وبالغوا في إكرامي ، ومنحوني هباتٍ
سخيَّة .

ثم قصَّ عليه جميعَ أخبارِهِ ، وهو يستمعُ إليه في اهتمامٍ ؛ ثم قال له :
والآن هيا إلى الحمام .

فدخل أبو قير ، وخلعَ عنه الملابس ، وأوصى أبو صير به رجاله ، فاعتنوا به
عنايةً خاصةً ، وبقيَ هو قريبًا منه ، لا يني عن إظهارِ فرجه به ، وإكرامِهِ
له ؛ وأخيرًا صحَّبه إلى الفراش ، وقَدَّمَ له الشرابَ ، ثم أعقبَهُ بطعامٍ لذيذٍ
شهيٍّ ، ولازمه جميعَ يومه ، لا يكفُّ عن الترحيب به ترحيبًا جعل جميعَ
الذين شاهدوه يحبُّون من حسنِ معاملته له ومبالغته في حفاوته به .

وقال أبو قير لأبي صير : واللهِ يارفيقي إن هذا الحمامَ عظيمٌ جدًا ،
وهو لا يقلُّ عن أفخمِ حمامٍ في الإسكندرية ، ولكن ينقصُك شيءٌ .

قال أبو صير : وما هو ؟

قال : هو مُرْكَبُ الزرنيخ والجير الذي يساعدُ على نظافةِ الجسمِ ،

فأصنعه وأعدّه ، حتى إذا ما حضرَ الملكُ فَقَدَّمته له ، وعَرَفَه كيف يستعمله ، فإنه إذا استعمله ارتاح له ، وزادت محبته لك .

فقال أبو صير : صدقت ، سأصنع هذا الدواء إن شاء الله ، وأقدّمه إلى الملك حينما يُشرفُ الحمام في الأسبوع القادم .

ولما تأهب أبو صير للانصراف أراد أن يعطى أبا صير أجره استحمامه ، ولكن هذا رفض قائلا : كيف يخطر ببالك أن تدفع لي شيئا ؟ ألسنا أخوين ، لا يفرق بيننا فارق ؟ وانصرف أبو صير من لدن أبي صير وقد ملأ الحقد والحسد قلبه عليه ، لما طأته من اتساع ثروته ، وما ناله من حُظوة عظيمة عند الملك ، ولم يستطع من فرط ما به من غلٍّ ، العودة إلى مصبغته قبل أن يذهب إلى الملك فينفث فيه من سمه .

فتوجّه من فورِهِ إلى قصر الملك ، وطلب مقابَلته ، فأذن له ، فلما حظى بها ، قال للملك : إني حضرتُ إليك يا ملك الزمان على غير موعدٍ ، وفي وقت غير مناسبٍ ، لأنني عرفتُ أمراً مهمّاً وشغلاً بالي ، وكان واجباً عليّ أن أسرع إليك ، لأقفك على ما علمت ، وأقدم لك النصيح ؛ فقد أسبغت عليّ من نعمك ، وأضفيت عليّ من معروفك ، ما يُوجبُ عليّ أن أكون مخلصاً لك ، مسرعاً إلى إبداء ما عندي من نصيحة .

قال الملك : هات نصيحتك .

قال : لقد بلغني أنك قد بنيت حماماً

قال الملك : نعم ؛ لقد أتاني رجلٌ غريبٌ ، ويُنّ لي محاسنه ،

فأنشأته له كما أنشأت لك المصبغة ، وهو حمام عظيم ازدانت به مدينتي
وأخذ الملك يسرد لأبي قير محاسن الحمام وفوائده
فقال أبو قير : وهل دخلته يا ملك الزمان ؟

قال : نعم

قال : الحمد لله الذي نجاك من شر صاحبه الخبيث ، عدوك وعدو
الدين .

فمجبب الملك من قوله ، وقال : الحمد لله الذي نجانى من شر صاحبه
الخبيث ، عدوى وعدو الدين . . ما هذا الذي تقول يا أبا قير ؟
قال الحقود : أعلم يا ملك الزمان ، أنك إن دخلت الحمام بعد هذا
اليوم ، فإنك هالك لا محالة .

فازداد عجب الملك وقال : أنت جاد فيما تقول ؟
قال : إن هذا الحمامي عدو لك ، كما هو عدو للدين ، وإنه ما أنشأ
هذا الحمام إلا ليبلغ عن طريقه غرضه ؛ فإن لديه سمًا قاتلاً ، يبغي به
قتلك ، وهو يزوم أن يقدمه لك على أنه دواء يساعد على نظافة الجسم ؛
فإذا ذلك به الجسم ، نفذ إلى داخله من المسام ، ولا يمضي على ذلك يوم
وليلة ، حتى يكون قد سرى السم مع الدم إلى القلب ، فيهلك مستعمله ؛
واستمر أبو قير يفتح فحيح الأفعى ، ويقول :

والسر في ذلك يا ملك الزمان ، أنه يريد فداء زوجته وأولاده من
أمر ملك النصارى ، إذ وعده هذا الملك أن يفك أسرهم إن قتل .

وسببُ معرفة هذا الخبر أنى كُنتُ أسيراً معه ، فأخذتُ أصبغ لحاشية الملك ملابسهم بالألوان الجميلة التى أتقنها ، فأحبوني ، وخاطبوا الملك فى شأنى ، فقال لى : ما الذى تطلبه ؟

فطلبتُ أن يطلقني من الأسر ، فأطلقني .

وحضرتُ إلى مدينتكم ، وفتحتم لى المصبغة ، واليوم ذهبت إلى الحمام ، بعد أن سمعتُ الناس يلهجون بالثناء عليه ؛ ففوجئتُ برؤية صاحبه الجمال ، إذ عرفتُ أنه هو زميلى فى الأسر عند ملك النصارى ، فقرحتُ بخلاصه ، وصألتُهُ : كيف أطلق سراحك أنتَ وزوجتك وأولادك ؟ . فقال لى : لم أزل أنا وزوجتى وأولادى مأسورين عند ملك النصارى . وذات يوم عقد الملك مجلساً ، وكنتُ حاضراً مع بعض الناس ، فسمعتُ جلساء الملك يتشاورون ، ويتداولون فى أمور الدولة وشئونها ، وصلتهم بالبلاد المجاورة وملوكها ، وأخذوا يخوضون فى أحاديث كثيرة ، حتى جرّهم الحديثُ إلى ذكر ملك هذه المدينة ، فحينئذ قال الملك وهو يكاد يتميز من الغيظ : ما قهرنى فى الدنيا غيرُ هذا الملك ، فإن وجدتُ من يتحاملُ على قتله ، ويقتله — أعطيته كُلاً ما يطلب — ولو كان يطلبُ نصفَ ملكى .

فتقدمتُ أنا منه ، وقلتُ له : إذا احتلتُ أنا على قتله وقتلته ،

أطلق سراحى أنا وزوجتى وأولادى ؟

قال الملك : نعم ، أطلق سراحكم جميعاً ، وأعطيك كل ما تمنى على .

قم الاتفاق بيننا على ذلك ، وأرسلني على أول سفينة آتية إلى هذه البلاد ؛ فلما وصلت ، ذهبت إلى الملك ، وأخبرته بعشروع الحمام ، فأعجبه ووافق عليه ، وأنشأ لي ، والآن ليس أمامي إلا أن أقتله ، وأذهب إلى ملك التصاري ، فأفك إيسار أسرتي ، وأتمنى عليه .

فسأله عن الطريقة التي سيعتمد إليها في قتلك ، فقال : إنه قد أعدت سما قاتلا ، يذلك به الجسم ، فينفذ إليه ، فيقتل مستعملة ؛ وهو الذي أخبرتك عنه ؛ فما سمعت منه هذا الكلام حتى أسرع بالجمي إليك لأحذرك ؛ لأن صنائعك عندي كثيرة ، وعوارفك على سابقة ، وخبرك لي كثير ، فأنا أتقلب في نيمتك ، وأنهم يعطفك ، وحياتي موصولة بحياتك ، وعيشي مرتبط بعزتك وجاهك ، فإن مسك مسوي مسي ، وإن أصابك ضرر أصابني ؛ فإذا كتمت عنك هذا السر ، كنت خائنا أستحق سخط الناس وعذاب الله .

وما انتهى أبو قير من كلامه ، حتى كان الملك في أشد حالات الاستفزاز والغضب نائر الأعصاب ، محتقن الوجه ، يكاد يطرغ الدم من عينيه غيظا ؛ فجاهد نفسه ، وغالب عاطفته ، ثم قال لأبي قير بصوت حاول أن يجعله هادئا : اكنتم هذا سرا يا أبا قير ؛ ولم يزد على ذلك كلمة واحدة ؛ وانصرف أبو قير مسرورا ؛ لأنه دبر مكيدة ، يقضي بها على أبي صير ، ناسيا للمرة الثانية ما كان بينهما من عهد ومواريق ، أحكمت بالآيمان المخلطة .

وكان الملك يذهب إلى الحمام مرة في كل أسبوع على ما قدمنا ،
ولكنه لم يستطع الانتظار إلى اليوم الذي اعتاد الذهاب فيه .

فما أصبح اليوم التالي حتى غنم على الذهاب إلى الحمام ، ليقطع الشك
بالبقين ، ويوقف على حقيقة ذلك الخير الذي نقله إليه أبو قير .

وكان أبو صير سريعاً نشيطاً في صنع الدواء الذي أرشده إليه أبو قير ؛
فإنه لما كاد يخرج من عنده حتى عمداً إلى شراء أجزاء الدواء وتركيبه ، ثم
ما كان أشد سروره واغتناطه ، حين حضر الملك على غير ميعاد ، وقد
فرغ هو من الدواء الذي أعده مديته له ..

وصاحب أبو صير الملك إلى المقصورة المعدة له ، وشرع في مهمته
معه على عادته ، ثم قال للملك ، وقد تهلل فرحاً : يا ملك الزمان ، لقد
صنعت لك دواءً جديداً يساعد على نظافة الجسم

فقال الملك ، وقد أيقن صدق أبي قير : أحضره لي

فسارع أبو صير إلى إحضاره ، فأخذه الملك منه ، وشتم رائحته ،
فوجد لها رائحة كريهة ، فتأكد أنه سم قاتل . وثبت عنده أن الحمى
يُرِيدُ قتله .

فارتدى ملابسه ، وقد احتدم برأسه الغضب ، ثم أمر جنوده
بالقبض على أبي صير .

قبض الجنود عليه ، وهم لا يعرفون لعناب الملك سبباً .

وعاد الملك وجنوده مصطحبين أباصير معهم إلى القصر ، ولا يجسُرُ
أحدٌ أن يسأل الملكَ عن سببِ غَضَبِهِ ، لشِدَّةِ ما اعتراه من التغير .
وعقد الملك من فوره مجلساً ، وأمر بإحضار بحّاره الأول ، فلما
حضر قال له :

خذ هذا اللعين الخائن الغدار (وأشار إلى أبي صير ، وكان مؤثماً
بالجبال رملتي على الأرض) ، وضعه في غرارة كبيرة ، وضع معه فيها
قنطارين جيرا حياً ، وأغلق فم الغرارة جيداً ، وضعها في زورق ، واحضر
بها تحت نافذتي ، حيث تجدني أطلّ عليك ، وأشير لك على المكان
الذي تُلقِيها فيه بالبحر ، ليدخل الماء في الغرارة ، فينطفئ الجير الحى على
هذا الخائن ، ويموت غريقاً حريقاً .

فقال البحار : سمعاً وطاعة يا ملك الزمان .
وأخذ البحار أباصير ، وذهب به إلى جزيرة في الضفة المقابلة لقصر
الملك ، وقال له : يا هذا ، أنا جئت عندك في الحمام مرة ، فأكرمتني غاية
الإكرام ، وخدمتني أجلّ خدمة ؛ لذلك أحبيبتك ، وأعظمْتُك وأكبرْتُك
لما لمستهُ فيكَ من طيب القلب ، وصفاء السريرة ، فأخبرني : ماذا بُك
لدى الملك ؟ وأى شيء أتيتهُ حتى غَضِبَ عليك كل هذا الغضب ، وأمر
بأن تموت تلك الميتة الشذيمة ، التي لم يحكم بها على أحدٍ من قبلك ؟
فقال أبو صير : والله ما عملتُ شيئاً يُغضب الملك ، ولا أعرفُ لى
ذنباً جنيتُهُ ، ولكنى خلصتُ له دأعماً ؛ فهو سيّدى وولىّ نعمتى ، وهو

الذى أنشأ لي الحمام ، وشجّمتني بما أعطاني من المال ؛ فلعلّ في الأمر سرّاً لا أعرفه .

فقال البحارُ : لقد كان لك عندَ الملكِ منزلةٌ كبيرةٌ ، ما نالها أحدٌ من قبلك ، وكلّ ذِي نعمةٍ محسود ، فلعلّ أحداً قد نفّس عليك ما نلته من النعمةِ والجاهِ ، فدرسّ وشايةً عليك عندَ الملكِ ، فغضبَ كلُّ هذا الغضبِ ؛ ولكنّ ، لا بأسَ عليك ، فأنتَ رجلٌ كريمٌ صادقٌ ، وقد اقتنعتُ بقسمِكَ أنّكَ بريءٌ ، وسأخلّصُك أنا جزاءَ إكرامِكَ لي ، ومَعروفِكَ عندي ، وليس أُمَامِي طريقةً أخاصُك بها إلا أن تُقيمَ في هذه الجزيرة ، مُخَفِيّاً في زِي صائِدٍ سمكٍ ، حتى تُصادفني سفينةٌ مسافرةٌ إلى بلادِكَ ، فأرسلَك مَعَهَا ، وتَنَجُّو بِحَيَاتِكَ ، وتخلصَ من ميتةٍ شنيعةٍ ، هيأَها لك الملكُ ؛ وإنّ الناسَ الطيّبينَ مثلكَ ، الذين سَلِمَت قلوبُهُم ، وصفتُ سرائِرَهُم ، وحسّنتُ نيّاتَهُم ، وطابت صدورُهُم ، لا يستطيعون أن يمشوا في كَنَفِ المُلُوكِ .

فقبّل أبو صير يدَ البحارِ ، وشكره على مروءتِهِ ومَعروفِهِ ، وهو يَشْكِي تأثراً بما غمره به من فضلٍ .

وأحضر البحارُ لأبي صير شبكةً ، وقال له :

أُرِمَ هذه الشبكةُ في البحرِ ، لعلّك تصطادُ شيئاً ، تُرسلُهُ إلى مطابخِ الملكِ ، فأنا الموكَّلُ بها ، وسأذهبُ أنا لأُختالَ على قَضاءِ المُهمّةِ التي أمرني بها الملكُ .

فقال أبو صير : سمّاً وطاعةً ، اذهبِ أنتَ والله مَعَكَ .

فذهبَ البحَّارَ وأحضرَ غرارةً كبيرةً ، وضعَ فيها حجراً كبيراً ، ثم
ملأها بالجير وأغلقَ فَمَها بِرِباطٍ محكمٍ ، ووضعها في زورقٍ ، وسارَ به في
البحرِ متَّجِهاً نحوَ قصرِ الملكِ .

وشاهدَ الملكُ جالساً بنافذةِ القصرِ ، يرتقبُ حضورَه ، فاقترَبَ حتى
صارَ أسفلَ النافذةِ ، وقالَ للمَلِكِ : يا مَلِكُ الزمانِ ، لقد فُضِّلْتُ
ما أُمِرْتُ به .

فقالَ الملكُ : وهو يُشِيرُ بيدهِ : أَلَيْهِ هُنَا تَحْتَ نافذةِ قِصرِي ،
لِمَوْتٍ غَرَقاً وحرَقاً أَمَامَ عَيْنِي ، وبينما الملكُ يَطْوِئُ يَدَهُ مشيراً للقبطانِ ،
سَقَطَ مِنْ يَدِهِ إلى البحرِ شَيْءٌ يَلْمَعُ ، وكانَ هذا الشَيْءُ الذي لَمَعَ وسَقَطَ هو
خاتَمُ الملكِ ، وكانَ خاتماً مرصوداً ، ما هالَ بهِ ملوكُ البلادِ ، وسائرُ الناسِ
إلا بهِ ، وكانتَ خاصيتهُ أَنه إذا أرادَ أَن يُمَيِّتَ أحداً لساعتهِ ، أشارَ عليهِ
بِخاتَمِهِ ، فيخرجُ منه بَارقٌ يصيبُ المَشارِ إليه ، فيُصَنِّقُ لَوَاقِحَهُ .

فكتمَ الملكُ في نَفْسِهِ خَبَرَ ضياعِ الخاتَمِ ، ولم يَجْشُرْ حتى على إرسالِ
خَدَمِهِ لِلبَحْثِ عنه ، مخافةً أَن يَنْتَشِرَ خَبَرُ ضياعِهِ ، فلا يعودُ يهابُهُ أحدٌ ،
وَيَفْقِدُ مُلْكَهُ .

أما أبو صير ، فإنه بعدَ أن تركه البحَّارُ أخذَ الشبْكَهَ ، فطَرَحَها في
البحرِ ، ثم جَذَبَها ، فخرَجَت ، وهي مملوءةٌ بالسَمَكِ ، فطَرَحَها ثانيةً ،
فخرَجَت كذلك ؛ وما زالَ يَطْرَحُها ويَجْذِبُها ، وهي تخرجُ مملوءةً
بالسَمَكِ ، حتى صادَ كِمْةً كبيرةً منه ، فتأثَّرتْ نَفْسُهُ إلى مَمَكَةٍ يشوبها

وَيَا كُلُّهَا ، فَاتَّقَى وَاحِدَةً ، وَقَطَّعَهَا بِسَكِينَةٍ ، حَتَّى إِذَا مَا عَادَ الْبَحَّارُ ،
 اسْتَأْذَنَهُ فِي شَيْئِهَا ، فَأَذِنَ لَهُ ، وَبَيْنَمَا هُوَ يَجْزُهَا عَلَقَ طَرَفَ السَّكِينِ
 بِخَيْشُومِهَا ، فَحَاوَلَ إِخْرَاجَهُ ، فَلَمْ يَخْرُجْ ، فَنَظَرَ فَرَأَاهَا عَالِقَةً بِخَاتَمٍ دَاخِلِ
 خَيْشُومِ السَّمَكَةِ ، فَعَجِبَ أَبُو صَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَخْرَجَ الْخَاتَمَ وَابْتَدَأَ
 فِي إِصْبَعِهِ .

وَكَانَ هَذَا الْخَاتَمُ هُوَ خَاتَمُ الْمَلِكِ الَّذِي سَقَطَ فِي الْمَاءِ مِنَ الْمَلِكِ حِينَ
 كَانَ يُشِيرُ إِلَى الْبَحَّارِ ، ابْتَلَعَتْهُ هَذِهِ السَّمَكَةُ ثُمَّ مَرَّتْ بِعَدِّ ذَلِكَ بِالْمَكَانِ
 الَّذِي يَصِيدُ بِهِ أَبُو صَيْرٍ فَوَقَعَتْ فِي شَبَكَتِهِ .

وَبَيْنَمَا أَبُو صَيْرٍ جَالِسٌ يَنْتَظِرُ حَضُورَ الْبَحَّارِ ، إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ غُلَامَانِ
 مِنْ خَدَمِ مَظَالِيخِ الْمَلِكِ يَرُومَانِ السَّمَكَ ، قَرَأَا أَبَا صَيْرٍ جَالِسًا بِجَانِبِ
 السَّمَكِ ، وَلَمْ يَجِدَا الْبَحَّارَ ، فَتَقَدَّمَا مَتَهُ وَسَأَلَاهُ :

يَا رَجُلَ ، أَيْنَ ذَهَبَ الْبَحَّارُ ؟

قَالَ : لَا أَعْلَمُ .

وَطَوَّحَ بِيَدِهِ الَّتِي بِهَا الْخَاتَمُ نَحْوَهُمَا ، فَإِذَا بِهِمَا قَدْ سَقَطَا إِلَى الْأَرْضِ .
 فَدَمَشَ أَبُو صَيْرٍ لِأَمْرِهِمَا ، وَقَامَ إِلَيْهِمَا فَوَجَدَهُمَا جَثَّتَيْنِ هَامِدَتَيْنِ ،
 فَتَأَسَّفَ وَتَحَسَّرَ عَلَيْهِمَا ، وَجَلَسَ يَحْضُرُهُمَا يَفْكُرُ فِي حَيْرَةٍ فِي
 سَبَبِ مَضَرَّتِهِمَا .

وَبَعْدَ لَحْظَةٍ أَقْبَلَ الْبَحَّارُ فَرَأَى أَبَا صَيْرٍ جَالِسًا بِجَانِبِ كَوْمَةِ السَّمَكِ ،
 وَبِجَانِبِهِ الْغُلَامَانِ الصَّرِيحَانِ ، وَلَمَحَ الْخَاتَمَ يَبْرُقُ فِي إِصْبَعِ أَبِي صَيْرٍ ، فَعَرَفَ

فيه خاتم الملك ، فأدرك ما حصل ، وابتدر أبو صير قائلا :
 لا تحرك يدك التي بها الخاتم نحوي ، فإنك إن فعلت ذلك قتلتني .
 فتحيّر أبو صير من هذه الأحاجي ، ونظر إلى البحار مستفسرا ،
 فقال البحار :

مَنْ الذي قَتَلَ هذينَ العَلامَينِ ؟
 قال أبو صير : والله يا أخي ما أدري !! أقبل عليّ ، وسألاني عنك ،
 فأخبرتهما أني لا أعرف مكانك ، ولم أكّد أنتهي من كلامي حتى رأيتُهما
 صريحتين كما ترى .
 قال البحارُ : أخبريني من أين وصل إليك هذا الخاتم الذي بأصبعك ؟
 قال أبو صير ، وجدته في خيشوم هذه السمكة .
 وأراه السمكة المشقوقة .

فقال البحارُ : صدقت ، فقد رأيتُ الخاتم وهو يسقطُ من يد الملك
 حين أشار بيده إلى المكان الذي أراد إلقاء الغرارة فيه ، فلا بُدَّ أن هذه
 السمكة قد ابتلعته ، ثم وقعت في شبكتك ، فوجدته فيها ، فأصبح من
 نصيبك ، ولكن أتعرف خواص هذا الخاتم ؟
 فقال أبو صير : والله لا أعرف له خواص .

قال البحارُ : اعلم أن هذا الخاتم مرصودٌ ، فإذا ما غَضِبَ الملك على
 أحدٍ ، وأراد قتله أشار به عليه ، فيخرجُ منه شعاعٌ يصيب المفضوبَ

عليه ، فيسقط من فورِهِ على الأرضِ صَريماً . ففَرِحَ أبو صير فرحاً شديداً
لحصوله على هذا الخاتم ، وقال للبحار :
عُدْ بِي إلى المدينةِ يا سيدي .

فقال البحارُ : سأعودُ بك إلى المدينةِ ، ولا أخافُ عليكِ مِنَ الملكِ
بعدَ حُصولك على هذا الخاتم ، لأنَّكَ إنْ أردتَ قتلَ أيِّ إنسانٍ
أمكنتك قتله .

ثم أنزله إلى الزورق وعاد به إلى المدينة .

- ٥ -

دخل أبو صير المدينةَ ، وذهب إلى قَصْرِ الملكِ ، وكان الملكُ جالساً
في ديوانِهِ ، فتمكَّنَ من الدخولِ عليه ، فرآه جالساً ، يُحيطُ به رجالُهُ
وعساكرُهُ ، فنظر إلى وَجْهِهِ فرأى علاماتِ الحزنِ الشديدِ مرسمةً
عليه ، وبدا في نظراتِ عينيه وحركاته قلقٌ شديدٌ لفقدِهِ الخاتمِ ولا سيما
أنه ليس له أملٌ في العثور عليه .

وما وَقَعَ نظر الملكِ على أبي صير ، حتى صاحَ فيه غاضباً مهتاجاً ثائراً :
أما أَلَقَيْنَاكَ في البَحْرِ ؟ ما الذي أَخْرَجَكَ مِنْهُ ؟

فقال أبو صير : حَلَمْتُ يا ملكَ الزمانِ ، إنك لما أَمَرْتَ بِإِلْقَائِي ،
أَخَذَنِي بِحَارُكَ إلى جزيرةٍ ، وسألني عن سببِ غَضَبِكَ مِنِّي ، وسُخِطَكَ
عَلَيَّ ، فأخبرتُهُ أَنِّي ما فَعَلْتُ شيئاً ، فلم أَرْتَكِبْ ذنباً ، ولم أَقْتَرِفْ إثمًا ،

فقال لي : إن منزلتك كانت كبيرة عند الملك ، فلا بُدَّ أن أحداً حسدك ،
ووشى بك عنده ، حتى غَضِبَ عليك ، ولكنني سأخلصك وأرجعك إلى
بلادك مكرماً ، كما أكرمتني حينما حضرتُ عندك في حمامك ، ووضع في
الغرارة بدلاً مني حجراً ، ورمأها في البحر عندما أمرته بذلك ، ولكنك
حين أمرته أن يرمي بالغرارة التي كنتَ تظنُّ أني فيها سقطاً من يدك
خاتمك ، فابتلعته سمكة ...

ثم أخذ يقص عليه قصته ، حتى أتى إليه .

وقال : وإنني قد حضرتُ لأرُدَّ لك الخاتم ، لأنك كنت قد فعلتَ
معي معروفاً لم يصنعه غيرك وأكرمتني ، وبالغت في إكرامي ، وأنا لذلك
أحببتك وأعزَّزتُك ، وتعلق قلبي بك ، وأخلصتُ لك الإخلاص كله ،
فما خطر بيالي أن أكون ضدك ، أو حرباً عليك ، ولم أضمر لك سوءاً
في يومٍ من الأيام ، فأنت وليُّ نعمتي ، وسببُ سعادتي ؛ ولكن هذا
التغيرُ المفاجيء الذي رأيته منك أدهشني ، وجعلني في حيرة ؛ ولم تمنحني
فرصة أستطيع أن أسأل فيها عن سببِ غضبك عليّ ، وإنكارك لي ، حتى
أمرتَ بقتلي حرقاً وغرقاً .

فهل أستطيعُ بعد ذلك كله أن أتفَّ على سببِ غضبك عليّ ، وعلى
ذنبي الذي ارتكبته ، وإن لك ياملك الزمان بعد هذا أن تقتلني ، وتُمِلَّ
بي إن أردت .

ثم خلع الخاتم من إصبعه وأعطاه للملك .

فلما رأى الملك ما فعله أبو صير ، وكان قادراً على قتله لو أراد ، كبر في عينيه ، ونهض إليه ، وطاقه وقبّله .

ثم لبس الخاتم ، وقد كاد يطير من شدة الفرح ، وقال لأبي صير ، وقد أيقن من براءته : يا رجُل ، إنك لأنبِلُ شخصٍ قابلته ، فلو كان أحدٌ غيرك مَلِكٌ هذا الخاتم لما أعطانيه ، فكيف بك ، وقد عثرت عليه بعد أن ظلمتُك ، فأمرت بقتلك على صورة بشعة شنيعة ، فينجيك البحار لما أَسَدَيْتَ إليه من معروف ، ثم تعود وتردّ إلى هذا الخاتم وتَنسَى أَنِّي قد أَسَأْتُ إليك ؛ يا لَكَ من إنسان مثالي في خُلُقك ! ولقد ثَبَتَ عندي بفعلك هذا أنك برئٌ ؛ فالحمد لله الذي نبّأك بما أَرَدَناه لك من سُوء ؛ والآن ، أرجو أن تَغْفِرَ لي ذنبي ، فقد أَسَأْتُ بك الظن ، وصدّقت وشاية الوُشاة ، فسامحني يا أخي ، وَلَكَ عندي ما تشاء .

فقال أبو صير : يا مَلِكُ الزمان ، ما زلتُ أُلِحُّ في أن أعْرِفَ سَبَبَ غضبك عليّ حتى أمرت بقتلي ، فإنك إن فعلت زال ما في نفسي .

قال الملك : إنما هي وشاية وشاها إلى الصباغ ، حيث قال وأخبره بجميع ما قاله الصباغ .

وأنصت أبو صير إلى قول الملك ، وقد ساء جداً أن يكذب عليه أبو قير .

ولما أُنْتَهَى الملك من سرِّ حديثه ، كان أبو صير في أشدِّ حالات الحنق والاشمئزاز من خُبثِ نفس أبي قير ، ولؤمِ طبعه ، وانحطاط خُلُقهِ ،

فقد جازاه أسوأ مجازاة بعد كل ما قدّم إليه من معروفٍ ، ونسى أنه تركه في الخانِ مريضاً ، وسلبه نقوده وخرج ، ثم رَحَّبَ به حينما رآه في الحمام وأكرمه ، ولكنه بعد ذلك كاه يَشَى به عند الملك وشايةً تُؤدى بحياته .

فقال للملك : والله يا مَلِك الزمان ، إني لا أعرفُ مَلِك النَّصَّارى ولم أذهبْ إلى بلاده في حياتي ، ولكن هذا الصباغ كان رَفِيقِي وجاري في مدينة الإسكندرية و... وقصَّ عليه قصَّته معه ، وكيف كان يجرى وراء رزقه ، ويطعمه وهو نائمٌ في الخان ، ثم كيف تركه مريضاً ، وأخذ نقوده ، ثم ما كان من ضربه له عند ذهابه إليه في المصبغة ، وادّعائه عليه بأنه لصّ ، ثم حضوره إلى الحمام ، وما قاله له عن الدواء .

واختتم أبو صير حديثه ، باستشهادِهِ ببوّاب الخان ، وبمقال المصبغة ، وطلب استدعاءهم ، لسمع الملك منهم ما رآوه وما سمعوه .

فأمر الملك باستدعائهم ، فأحضروا ، وسمع أقوالهم ، فأيدوا كلامَ أبي صير ، وأيقن الملك أنه صادق ، وأنه رجلٌ فيه إنسانية ، وفيه خير ، ومن كان مثله يُنجيه الله من كل ضيق يقع فيه ، ومهما حاول غيره أن يؤذيه ، فإن الله يُنجيه .

أمر الملك جنوده بالمسارعة إلى القبض على أبي قير ، وإحضاره موثقاً بالحبال ، مكشوف الرأس ، حافي القدمين .

وكان أبو قير جالساً في منزله ، مسروراً لنجاح مكيدته التي كادها

لأبي صير ، وأدّت إلى قتله ؛ ولم يُؤثِّبْه ضميره على أنه آذَى رجلاً كان يُحسِنُ إليه .

فأشعر إلا والجنودُ قد أحاطوا بداره ، واقتلموه من مكانه ، فحاول أن يستفهم عن سببِ مغالطتهم له ، واشتدّاهم عليه ؛ فما أجابوه إلا بالضربِ بالعصى والصفع على القفا ، والرّكلِ بالأقدام ، ولم يخف عنه صراخ ولا عويل ، ولا استغاثة ولا استرحام .

وما زالوا به يسوقونه أمامهم سوقَ الأنعام حتى أوصلوه إلى قصر الملك ، فرأى أباصير جالساً بجانبه ، وأمامهما بوابُ الخان ، وعمّال المصبغة .

فأشارَ الملك إلى الشهود ، أن يتكلموا ، فقال بوابُ الخان لأبي قير : أليس هذا رفيقك ، الذي سرقتَ تقوده ، وتركتَه في الحجرة مريضاً عيلاً لا يقوى على الحركة ، حتى كشفتُ أنا مرضه ، ولولا لطفُ الله ، لمات جوعاً داخلَ الغرفة التي أغلقتها عليه ، وظل فيها حياً ثلاثاً أيام يئنّ ويتوجّع ؟

وقال عمال المصبغة : أليس هذا الذي أمرتْنا بضربه ، على أنه لص ، وما رأيناه سرّق شيئاً ، وقد كان ذلك موضعَ عجبٍ منا واستغراب ، لأننا نعلم أنه لم يسرق شيئاً ، وأنه لم يحضر إلى المصبغة إلا في ذلك اليوم الذي أمرتْنا فيه بضربه ، ولكنتنا لم نملك إلا أن نُطيعَكَ ، فضرَبناه ضرباً موجعاً مُبرِّحاً ؟



حينئذ تبين الملك سوء أخلاق أبي قير وعظم مشاعة جرمه ، فقال
لجنوده : جرّدوه من ثيابه ، وطوفوا به في المدينة ، عبرة لمن يعتبر ، ثم
ضعوه في غرارة مملوءة بالجير الحى ، وألقوه بالبحر ، ليموت غرقاً وحرقاً ،
كما حكمنا على صاحبه الطيب من قبل ، فنجاه الله ، فهذا الحقود الخائن
أولى بهذه الميته .

فقال أبو صير للملك : يا مَلِك الزمان ، شَفَعْنِي فِيهِ ، فَإِنِّي مُسَامِحُهُ ،
ومتجاوزٌ عن جميع ما فعله معي ؛ وما ذلك إِلَّا لِأَنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ يُسَيِّرُ
عليه ، وَيُغَيِّرُهُ بِفَعْلِ السُّوءِ ، وَقَدْ يُصْلِحُهُ الْعَفْوُ عَنْهُ ، وَالتَّجَاوُزُ عَنْ
سَيِّئَاتِهِ .

فقال الملك : إِنْ كُنْتَ سَامَحْتَهُ فِي حَقِّكَ ، فَأَنَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَسَامَحَهُ
فِي حَقِّي ، فَإِنَّ هَذَا أَسْوَأُ مَثَلٍ لِلْإِنْسَانِ الشَّرِيرِ ، وَإِذَا لَمْ يَلْقَ جَزَاءَهُ ، تَمَادَى
فِي شَرِّهِ .

ثم صاح على الجنود قائلاً : خُذُوهُ .

فأخذوه ، وطافوا به حول المدينة كما أمر الملك ، ووضعوه في الغرارة
المملوءة بالجير الحى ، وألقوه في البحر . فمات غريقاً حريقاً ، جزاء
حَقِّهِ وَغَدْرِهِ .

وعرض الملك الوزارة على أبي صير ، ولكنه رفض ، فقال له : تمن
علىّ تمط يا أبا صير .

فقال : تَمَنَيْتُ عَلَيْكَ أَنْ تُرْسَلَنِي إِلَى بِلَادِي ، فَإِنِّي مَا بَقِيَ لِي رَغْبَةٌ فِي
الْبَقَاءِ هُنَا .

فَأَذِنَ لَهُ الْمَلِكُ بِالسَّفَرِ ، وَلَمْ يَمَارِضْهُ ، وَوَهَبَ لَهُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً ،
وَأَعْطَاهُ عَطَايَا عَظِيمَةً ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِ بِسَفِينَةٍ مَشْحُونَةٍ بِالْخَيْرَاتِ ، وَجَمِيعِ
بَحَارَتِهَا مِنْ مَمَالِيكِهِ ، فَوَهَبَهُمْ لَهُ أَيْضًا .

وَوَدَّعَ أَبُو صِيرِ الْمَلِكِ ، ثُمَّ أَقْلَعَ بِسَفِينَتِهِ .

وَمَا زَالَتِ السَّفِينَةُ تَمْخِرُ بِهِمُ الْبَحْرَ ، حَتَّى أَلْقَتِ مَرَسَاهَا بِشَاطِئِ
الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَنَزَلَ جَمِيعُ مَنْ فِيهَا إِلَى الشَّاطِئِ ؛ وَإِذَا بِمَلُوكِ يَهْرَعُ إِلَى
أَبِي صِيرٍ قَائِلًا :

يَا سَيِّدِي ، إِنَّ عَلَى حَافَةِ الشَّاطِئِ غَرَارَةً ثَقِيلَةً مُحْكَمَةَ الرِّبَاطِ ، وَلَا
أَدْرِي مَا فِيهَا .

فَذَهَبَ أَبُو صِيرٍ إِلَيْهَا ، وَفَتَحَهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا جِثَّةَ أَبِي قَيْرِ .

فَوَقَفَ يَتَأَمَّلُهَا بَرْهَةً ، وَمَا مَلَكَ دُمُوعُهُ فَإِنَّهَا طَفَرَتْ مِنْ عَيْنَيْهِ .

وَتَذَكَّرَ مَغَادِرَتَهُمَا هَذَا الشَّاطِئِ مَعًا ، وَالْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمَا عَلَى الْعَمَلِ
بِهِ حَتَّى يَعُودَا ؛ وَهَاهُوَ ذَا قَدَمَادَ ، وَمَادَ أَبُو قَيْرِ ، وَلَكِنْ شَتَّانَ بَيْنَ
الْحَالَتَيْنِ ، فَهَذَا حَيٌّ ، وَذَلِكَ مَيِّتٌ ؛ وَهَذَا مَرْضِيٌّ عَنْهُ ، عَطَرَ السَّيْرَةَ ،
وَذَلِكَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ ، مَلْعُونٌ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ .

وَلَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ أَبُو صِيرٍ إِلَّا فِي الْعَمَلِ عَلَى دَفْنِ صَاحِبِهِ ، اسْتِجَابَةً لِمَا

طبع عليه من كرم الخلق والصفح الجميل .

فدفنه بالقرب من الإسكندرية ، وأقام له ضريحاً وقفَ عليه أوقفاً
لينفق من ريعها عليه .

ولما وافتى الأجل أباصير ، دُفن بجانب أبي قير ؛ وعُرف المكانُ
بين الناس باسم أبي قير وأبي صير .
ثم اشتهرَ بمد ذلك بشاطيء أبي قير .



تاج الملوك

كانت المدينة الخضراء ، من وراء جبال أصفهان في العهد الخواري ،
مُسْتَحَرَّة الممران ، نفاحة بالحياة ، وجمع ملكها سليمان سلطان الجماعة
في يده ، بما كتبه على نفسه ، من عدل وإحسان ورحمة ؛ فسخر رعيته
لسلطان أمره ، ونفاذ حكمه ، وعاش مدة مديدة من الزمان ، في ظل
ممدود من سلام وأمان ، لا يرتق صفوة عيشه ، إلا أنه لا ولد له ولا
زوجة ، وكان وزيره على سنته ، في سماحة نفسه ، وفيض إحسانه ،
وشمول عدله ؛ فخلأ بهما مجلس ذات ليلة ، فقال : لقد أثقل كاهلي ،
وقصم ظهري ، أني من غير صاحبة ولا ولد ، وما كان لي أن أصير على
هذه الحال ، ذلك العمر الطويل ، وما كنت لأخرج بالكوف عليها
عن سنة الملوك ، وأعصى ما أشار إليه الرسول الكريم بقوله : « تناكحوا

تناسلوا تكثروا فإني مُباهٍ بكم الأمم يوم القيامة ؛ ومن الخير أن أَسْعَى
إلى زوج طيبة دينة ، كريمة العرق ، ذات نسب زكى ممدود ، وحسب
شريف غير محدود ، لعلّ أرزق منها بولد يرثني من بَندى ، ويكون مثلاً
في التقوى والرجولة والعزة ، والإقبال على رعيته إشبال الأمومة ؛ فقال
الوزير : ولقد يَسَّرَ اللهُ أمرك ، وقضى مأربك ؛ فقال : وكيف كان
ذلك ؟ فقال الوزير : بلغني أن للملك زهرشاه ، صاحب الأرض البيضاء ،
بنتاً هي للدين وللدنيا ، جمالٌ وتقوى ، تتوسّم في أساريرها نور الدين ،
وتتنسّم من أعطافها ريح الخلق العظيم ؛ وهي حسناء هيفاء تفوق طلعها
الشمس والقمر ، وأرى أن تُرسل في خطبتها من أيها ، رسولاً فطيناً
خبيراً ، يتلطف في القول ، ويأتى الأمور من أبوابها ، فانصرف عن
المملك اللهم ، انصرف الليل المرعد عند الصباح الوديع . وقال : إن أراد
الله لنور الأولاد أن يُشرق في هذا القصر الملوكي المتواضع ، ويمحو هذا
العقم المصنوع الوديع ، فيضك له : بما تجلّى فيك من مواهب الرأى
والفطنة ، وقد وُكِّلَ إليك معالجة هذا الأمر ، فلتسافر إليه من غدك ،
والله يوفّقك ؛ فقال الوزير : أمرٌ مُطاع ، وعلى الله قصد السبيل .

ورأى الوزير من الحكمة أن يربط الملكين برباط من الود ، قبل
أن يبلغ رسالته ، فحمل معه من الهدايا ما يليق بملك عظيم ، وهذه
جواهر نفيسة ، وتلك جياذ صافيات ، وأوائك جوار حسان ، وهؤلاء
عبيدٌ وعلمان ؛ وسار يطوى القفر والبيد ، فلما كان من مدينة زهرشاه

على مسيرة يوم ، تزل على شاطئ نهر صفا ماءه واقشعرت مويجاته ،
 في كنف شجرة ذات ظلٍ ممدود ، وزهر منضود ، نسمها رُخاء ،
 وعبرها يفوح في الجواء ؛ ثم أوفدَ أحدَ رجاله إلى الملك زهرشاه ،
 يُخبره بقدومه ؛ فلما أوفى على مدينته — وكان جالساً في بُستانٍ بظاهرها —
 رآه في حركاتٍ وهيئةٍ يَنَمَّانِ عن غُربته ، وأنه ليسَ من أهل تلكَ
 المدينة ، فأرسلَ إليه مَنْ أحضره بين يديه ، وسأله عن مقصده وذايته ،
 فأخبره نبأ قدوم الوزير ، وأنه تركه على نهر بيننا وبينه مسيرة يوم ، وفي
 طريقه الآن إلى المدينة ؛ ورُبما وصلَ إليها غداً ، فاصطحبه الملكُ إلى
 قصره ، وأمر بعضَ وزرائه وحُجَّابه ، أن يخرجوا للقاء وزير الملك سليمان
 شاه ، تكريماً له وتعظيماً .

ولما جمعت الشمسُ أشعتها وتوارت بالحجاب ، استأنف الوزيرُ
 سيره إلى المدينة ، يَشُقُّ سُدُولَ الظلام ، على هُدًى من النجوم ، في
 طريقٍ رحبٍ ، وحوله من الفراغ نطاقٌ خفيف ، يثير البلبَل في الخواطر ،
 ولما انبثق نورُ الصباح لقيه وفدُ الملك لقاءً الماشق المتوجِّدِ فتاته ؛
 فاستبشر الوزيرُ بهذه الحفاوة البالغة ، وظنَّ أنه بالغَ مأربه ، وسجَّلَ في
 نفسه أوَّلَ بارقةٍ من بَوَارِقِ أمله ، وخَفُّوا جميعهم إلى المدينة ، فألقاها
 الوزيرُ جيَّاشةً بالحياة ، مَوَّارةً بالحركة ، مُتَوَّبةً ألهم ، متواطئةً على
 الجدِّ والعمل ، حتى كانوا أمامَ قصر الملك زهرشاه ، فإذا حديقة
 تتصدَّره ، ذات رُواءٍ بهيجٍ ، ومنظرٍ فاتنٍ ، يسحرُ اللَّبَّ ، ويعلمُكُ

الطرف، فسيرنا في ممشيها بخطى مُتَّسِدَةٍ، حتى وليج بي وزيرُ الملك باب القصر الحديدي، المكسو بالنحاس المموه بالذهب، إلى دهليز عريض ممدود، وقف حرسُ الملك بأسلحتهم فيه صَفَّين، ذات اليمين وذات الشمال، وانهى بنا إلى إيوانٍ مرتفع، فصعدنا في سلم من الرخام الناصع بياضه، والمحلى جانباه بأصص الأزهار المختلفة، تفتح بأريجها العطر، وأذن لنا بالدخول، فإذا الملكُ جالسٌ في صدر الإيوان، على عرشٍ قوائمه من العاج المرصع بالدر والجوهر، ذى فرشٍ وثيرٍ من سندسٍ وإستبرق، ورجالٌ دولته جالسون أمامه في استدارة الهلال في صدر السماء، فحييت الملك ومن معه تحيةً طيبة، وأجلسني على كرسيٍّ بحوار عرشه، وسمات الفرع بادية على وجهه، متألقة في وجوه حاشيته، وأمر بإكرام من حضر معي من جوار وعبيد، وأحضر مائدةً جمعت مالد وطاب، من صنوف الطعام والشراب فأكلنا مريثاً، وشربنا هنيئاً، ورأيت من عظيم إقباله، وكريم إيناسه، ما طمأنني على ماجئت من أجله، ولما خلا الإيوان إلا من الملك وخاصته، نهضت واقفاً بين يديه، فقلت:

أيها العاهل الكبير، لقد ذاع فضلك، وطبق الآفاق مجدك، وتنفست الأنديّة بأريج سيرتك، وبالغ حكمتك، فرغب في الزلفى إليك الملك سليمان شاه، وجعل المصاهرة وشيجة الامتزاج والمحبة، ورابطة القرب والألفة، وأحب أن تكون ابنتك الكريمة، زوجاله، فيضيف بذلك كل منكما إلى ملكه مُلْكاً، وإلى جُنده جُنْداً، وإلى سلطانه وقوته



سلطاناً وقوة، وتُصبحاً مَبْعَثَ هَيْبَةٍ، ومَشْرِقَ سَطْوَةٍ، ومَهِيْطَ رِجَالٍ ورَغْبَةٍ، ومِلَادَ كُلِّ ذِي حَاجَةٍ ومَعُونَةٍ، وحِرْصاً مِنَ الْمَلِكِ سَلِيْمَانَ عَلَى سُرْعَةِ إِنْجَازِ رَغْبَتِهِ، إِذَا حَازَتْ مِنْكُمْ الْقَبُولَ وَالرِّضَا، فَقَدْ وَكَّلَنِي عَنْهُ فِي عَقْدِ الزَّوْجِ وَالْأَمْرِ بِعَدِّ ذَلِكَ لِلْمَلِكِ الْعَظِيمِ زَهْرٍ شَاهٍ، فَيَمِيلُ الْمَلِكُ فَرِحاً وَقَالَ : تِلْكَ أُمْنِيَّةٌ جَادَ بِهَا الزَّمَانُ، وَوَاتَانِي الْقَدَرُ، وَمِنْ الْخَيْرِ أَنْ نُعَجِّلَ بِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِالْقَاضِي وَالشُّهُودِ أَنْ يَحْضُرُوا بِالْإِيْوَانِ اللَّيْلَةَ، وَتَأْلُقَ الْأَضْوَاءُ فِي جَنَابَاتِ الْقَصْرِ وَأَرْجَائِهِ، وَخَفَقَتْ أَعْلَامُ الْأَفْرَاجِ وَالبَهْجَةِ، وَصَدَحَتْ الْمَوْسِيقَى ابْتِهَاجاً وَمُسَرَّةً، وَفِي حَضْرَةِ وَزَرَائِهِ وَخَاصَّتِهِ، تَمَّ عَقْدُ الزَّوْاجِ بَيْنَ سِمَاتِ الْغُبَطَةِ، وَمَعَالِمِ الزَّيْنَةِ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ الْوَزِيرُ، أَنْ يَقْبَلَ الْمَلِكُ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ الْهَدَايَا، فَقَبِلَهَا شَاكِراً.

وَأَعْلَنَ الْمَلِكُ إِقَامَةَ الْوَلَاثِمِ فِي قَصْرِهِ، يَوْمَهَا أَبْنَاءُ مَدِينَتِهِ، ابْتِهَاجاً بِزَوْاجِ الْأَمِيرَةِ، وَسَرَى هَذَا النِّبَأُ سَرِيانَ الْحَيَاةِ فِي النَّبَاتِ، فَازْدَهَرَ كُلُّ بَيْتٍ، وَازْيَنَ كُلُّ شَارِعٍ، بِالْأَعْلَامِ الْمَرْفُوعَةِ، وَالرَّايَاتِ الْخَفَاقَةِ، وَأَلْعَابِ الْخَلِيلِ وَمِظَاهِرِ الْإِلَهِو، وَأَلْوَانِ الْمَرَّاحِ، فِي كُلِّ بُقْعَةٍ، فَامْتَلَأَ الْجَوُّ بِأَغَارِيدِ الْغِنَاءِ، وَنَغَمَاتِ الْمَزَامِيرِ، وَأَصْوَاتِ الدُّفُوفِ وَالطَّبُولِ، وَخَلَفَتْ أَنْوَارُ الْمَصَابِيحِ شَمْسَ النَّهَارِ، فَجِيَتْ آيَةُ الظَّلَامِ، شَهْرَيْنِ كَامِلَيْنِ، أَعَدَّ الْمَلِكُ فِيهِمَا أَنْثَى ابْنَتِهِ وَفَرَّاشَهَا، وَأَعَدَّ هَوْدَجاً مِنْ خَالِصِ الْحَرِيرِ، الْمَنْقُوشِ بِالذَّهَبِ، وَالْمَحْلَى بِالْجَوَاهِرِ وَالدَّرَرِ، لَتَسَافِرَ فِيهِ إِلَى بَنَازِلِهَا.

وَفِي غُرَةِ الشَّهْرِ الثَّالِثِ، وَدَّعَى ابْنَتَهُ فِي حَقْلِ جَامِعٍ، عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ

فراستخ من عاصمة ملكه ، ثم رجع هو ومن معه .

وسار الوزير بها ، ومعه أئامها وفراشها ، وعبيدُها وإماؤها ، حتى كان على مسافة يوم من مدينة ملكه سليمان شاه ، فأوفد رسولا إليه ، يخبره بقدم العروس على خير ما يود ويبغي .

وكان الملك سليمان شاه في تلك المدة ، يتقلب على أحر من الجمر ، مُرتقبا وزيره ، راجيا أن يعود فائزا منصورا ، وما كاد الرسول يخبره بقدم العروس ، حتى بُعث خلقا آخر ، يفيض حياة وقوة ، ويشيع نورا ووضاءة ، وأصدر أمره ، أن يخرج الجنود رُكبانا ورجالا ، لاستقبال العروس في حفل عسكري رائع ، وطار الخبر إلى المدينة ، فهبت نساء ورجالا ، شيوخا وفتياتا ، إلى لقاء الملكة ، في سكرة من فرح ومسرّة .

وجاءت العروس إلى قصر الملك ، والفرح من حواها باد في الأفواه زغردة وغناء ، وفي الأيدي تصفيقا ، وفي الطبول تقرا ودقا ، وفي آلات الطرب صفيرا وعزفا ، وفي الأعلام خفقانا وحركة ، وقوى من كل أوائك جمالها وما ترفل فيه من حلل وزينة .

ودخلت مقصورتها التي أعدت لها ، فجلست على سريرها الذهبي ، المفروش بالحريز والإستبرق ، وقضى الملك معها الليلة في أهنا حال ، وأهدأ بال ، وشاء القدر أن تحمل منه الليلة ، فزاد الملك لها حبا وإعازا ، وودّا وتسكرا .

وجاءها المخاض في آخر التاسع من شهور حملها ، فوضعت غلاما
 زكيا ، فكان مشرق سعادة ، ومبعث حياة خالدة ، في نفس أبيه ، وسماء
 تاج الملوك ، وعني بكفاليته جد العناية ، فلما أوفى على سبع من عمره ، وكل
 إلى العلماء والحكام أمر تعليمه وتنقيفه ، ولما حذق الخط والكتابة ،
 والأدب والحكمة ، وكله إلى أستاذ يعلمه الفروسيّة ، فكان يخرج به إلى
 الفلاة ، تحرّسه مُلّة من الجنود الأشداء ، فيروضه على أعمال الصيد
 والقنص ، وركوب الخيل ، والطعن والضرب ، حتّى اشتدّ ساعده ، وبرع
 في البطولة ، وشغف بها شغفا عظيما ، وكان قد بلغ من العمر ثمان عشرة سنة
 وجعل يؤم المصايد والمقاصص كلّ يوم ، غير مُشفق على أبيه ، الذي يأبى
 عليه هذا الخروج ، مخافة أن يُصيبه مكروه .

وذات يوم أمر تاج الملوك خدمه ورجاله ، الذين يصحبونه في مَنَاده
 ومراحه ، أن يتزوّدوا بما يكفيهم عشرة أيام ، فلما حَزَّ موامنتهم ساروا مُوغلين
 في البيداء أربعة أيام ، ثم نزلوا على مَرَجٍ بَسَقَ دَوْحُه ، واشتبك شجره
 وتفجّرت عيونه ، وطاب نسيمه ، واتخذوا من قباهم المضروبة سكنا ،
 ينساختون منها للصيد والقنص ثم يمودون ، وفي بُكرة ليلة من ليالي
 نزولهم ، رأوا جماعة قد حطّوا بأمتعتهم ، في ناحية من نواحي مَرَجِهِمْ ، فبعث
 تاج الملوك إليهم من يعرفهم ، ويتبين مقصدهم ومأربهم ، فقالوا إنا تجار
 وجئنا ببضاعتنا هذه ، إلى مدينة الملك شاه ، ومنها كثير لابنه تاج
 الملوك ، ولما أجهدنا السَّفرَ نزلنا لنستريح غير خائفين ، لأننا في حِمَى

الملك سليمان شاه ، الذى من أوى إليه سلم ، ومن لاذ به أمين .

فلما جاءه الرسول بما عرف ، أمر بإحضار التجار بضاعتهم لديه ، فذهب الرسول إليهم وكان لبقاً فقال : سيدي الأمير تاج الملوك سليمان شاه يدعوكم لحضرته ، ليزداد أمنكم ، ويأتئس بكم ، وتعرضوا عليه بضاعتكم ، ففرحوا وقالوا : ذلك حظنا السعيد أسرع فواتانا ، وخف لا ستقبالنا ، وكانوا بعد فترة من الزمن بين يديه ، فعرضوا بضاعتهم ، وأخذ لنفسه منها ما راقه ، وتقدم ثمنه ، غير أنه لحظ شاباً من بينهم ، قرأ في وجهه قلقاً يحور في نفسه ، وحسرة تنلظى في صدره ، وأنه لم يعرض مثل زملائه بضاعته ، فقال له تاج الملوك : لعل شيئاً في نفسك ، حبسك عن عرض بضاعتك ؟ فقال : ليس إلا ما أعلمه ، من أنها غير صالحة ، فقال الأمير : سأنظر إليها بعيني لا بعينك ، وقد أرى فيها غير ما ترى ، فعرضها الشاب قطعة قطعة ، وكان منها ثوب من الحرير ، فسقطت منه خرقة وهو يعرضه ، فأسرع الشاب وخبأها تحت فخذيه ، فسأله الأمير : ما هذا الذى خبأته تحت فخذك ؟ فقال : ذلك ما ليس لك به حاجة ، فقال الأمير : ربما كان ذلك هو الذى أنحل جسمك ، وأحال لونك ، وبلبل فكرك ، ولدى عزم مشبوب ، لأنفس عنك ما تقاسيه من خطوب ، ومن الخير ألا تخفى أمرها وأمرك عني ، فالمرء ضعيف بنفسه ، قوى بأخيه .

وبسط الشاب الخرقة ، فإذا بها صورة غزال من حرير مزخرف

بالذهب في ناحية ، وصورة غزال في ناحية أخرى ، من سندس مزخرف
بالفضة ، وفي رقبته طوق من ذهب ، وثلاث حبات من زبرجد ،
فلكت الصورتان على تاج الملوك مشاعره ، وأقبل على الشاب قائلاً :
أفصص نصصك ، ولا تفاذر منه صغيرة ولا كبيرة ، فقال الشاب :

كان أبي من كبار التجار ، وكان له أخ مات عن بنت قطعت من
عمرها ثلاثة أهلة ، وكانت بدعا في الجمال وحسن الخلقة ، فكفلها أبي ،
وكان لم يرزق بولد غيري . واتفق هو وعمي قبل موته ، أن يزوجني
من بنته هذه ، فريت معها في بيت أبي تربية عالية ، ولما بلغنا الرشد ،
أخذ أبي في إعداد ما يلزم لوليمة إبرام عقد زواجي منها ، ودعا أصحابه
من التجار والأعيان ، إلى حضور الوليمة ، عقب صلاة الجمعة ، وكنت
قد أخذت في هذا اليوم إلى الحمام حلة فاخرة ، لأحضر بها وليمة الزواج ،
فلما خرجت من الحمام ، تذكرت صديقاً لي ، فرغبت أن أدعوه ، وجعلت
أبحث عنه ، ولما شعرت بالتعب ، جلست أستريح على مضطبة ، في
زقاق لم أسلكه من قبل ، وكان جسمي قد تفجّر عرفاً ، فجعلت أجففه
بمنديل حتى ابتل وتشبع بالماء . وبينما أنا جالس على هذه الحال ، إذ سقط
على منديل من الحرير ، تشع منه رائحة ذكية ، فأرسلت بصرى إلى
مهبّط المنديل ، فإذا فتاة مطلة من نافذة ، كأنها البدر المطل من خلال
السحب المنقطعة ، فلما رأتني شاخص البصر إليها ، وضعت إصبعها في
فمها ثم أخرجته ، وقرنت الوسطى بالسبابة ، ووضعتهما بين يديها ، ثم

أقفلت النافذة ، وغابت في الحجرة ، فاستمرت في قلبى نارٌ من الوجد والهيام ، ولبثتُ أرتقبُ عودةَ الفتاةِ تطلُّ ثانيةً من النافذة ، حتى توارت الشمسُ بالحجاب ، ولما استياستُ قفلى راجعاً إلى بيتِ أبى ، وبينما أنا سائرٌ فتحتُ المنديلَ الذى هوى على من النافذة ، فوجدتُ فيه ورقةً قد كتبَ فيها : « القتلُ فى سهامِ العينِ إذا رنت ، والسكرُ بالرضابِ لا بالقَدَحِ » ، فزاد الوجدُ فى قلبى استعاراً ، وذهبتُ إلى البيتِ اضطربُ اضطراباً ، فألفيتُ ابنةَ عمى ، جالسةً تبيكى ، فكفكتُ من حزنها ، وسألتهَا عن ولیمة الزواج وما تمَّ فيها ، فقالت : جاءها رجالاتُ المدينة وأعيانُها ، فطعموا وشرُّوا ، وانتظروا قدومك طويلاً ، فلما استياسوا منه خلصوا نَجِيّاً ، وهم فى حيرةٍ من غيابك ، وقد غضِبَ والدك ، وأقسم أن يرجى زواجى منك إلى العام المقبل ، فهل أستطيع أن أعرفَ منك سببَ تأخرِكَ إلى هذا الوقت من الليل ، فلما أخبرها ، وقرأتُ ما فى الورقة ، سألته عما قالت أو أشارت ، فقال : لم تقل شيئاً ، ولسكنها وضعتُ إصبعها فى فمها ثم أخرجته ، وضمت الوُسْطى إلى السجّابة ، ووضعتهما بين نهديهما ، ثم اختفت وأقفلت النافذة ، فهل أجدُ عندك معونةً على ما بُليتُ به من الهوى ؟ فقالت : لك عَيْنى ورُوحى وكل ما أملك ، فقال : وهل تعرفين ما ترمى إليه من إشاراتها ؟ فقالت : إنَّها تقولُ بوضع إصبعها فى فمها : إني أعضُّ على حبِّك بالنواجذ ، وتقول بوضع إصبعيها بين نهديهما : تعالَ هنا بعدَ يومين ، لأطفيءُ برؤيتك لهيبَ الجوى ،



ما المنديلُ فسلامُ المُحِبِّينَ ، وأما الورقةُ فما كَتَبَ فيها واضحٌ مُبينٌ ،
 وَاوَكَنْتُ أَخْرَجُ مِنْ الْبَيْتِ لَجَمْتُ يَدَيْنِكما فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ ، وَأَسْبَلْتُ
 عَلَيْكما سِتْرَ الْكِتْمَانِ ، وَلَبِثْتُ يَوْمَيْنِ فِي حَضَانَةِ ابْنَةِ عَمِّي ، تَبِعْتُ فِي
 الْأَمَلِ الْبَاسِمَ ، وَتَبَشَّرَنِي بِوَصَالِ جَمِيلٍ . وَلَمَّا انْقَضَى الْيَوْمَانِ أَلْبَسْتَنِي
 أَحْسَنَ مَا لَدَيَّ مِنَ الثِّيَابِ ، وَسَرَّحْتَنِي إِلَى فِتْنَتَيْنِ مُشِيعًا بِدُعَائِهَا وَقَلْبِهَا ،
 فَكُنْتُ بَعْدَ قَلِيلٍ فِي الْمَكَانِ الْمَعْهُودِ ، فِي الْوَقْتِ الْمَوْعُودِ ، وَمَا كَدْتُ
 أَسْتَقِرَّ عَلَى الْمَصْطَبَةِ ، حَتَّى أَشْرَقَتِ النَّافِذَةُ بِوَجْهِ الْفَتَاةِ ، فَبَسَطْتُ كَفَّيْهَا ،
 وَحَلَّتْ بِأَصَابِعِهَا الْحَمْسِ صَدْرَهَا ، ثُمَّ أَوْحَتْ بِمِرْآةٍ فِي يَدِهَا ، وَالتَقَمَتْهَا
 الْحَجَرَةُ ، بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَتِ النَّافِذَةَ ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَقَمْتُ عَلَى عَجَلٍ
 إِلَى ابْنَةِ عَمِّي ، فَاسْتَقْبَلْتَنِي بِاسْمَةٍ ضَاكِكَةً قَائِلَةً : لِمَلِكِ التَّقِيَّتِ بِفِتْنَتِكَ ١٢
 فَقُلْتُ : لَا أَزَالُ فِي يَأْسٍ مِنَ الْلِقَاءِ ، وَحَكَيْتُ مَا فَعَلْتُهُ ، فَقَالَتْ : لَا تَنْفَكُ
 مَالِقَةً بِكَ ، وَلَا يَزَالُ هَوَاهَا مَعَكَ ؛ أَمَّا ضَرْبُهَا بِالْكَفِّ صَدْرَهَا فَإِنَّهُ
 إِشَارَةٌ إِلَى أَنْ تَجِيئَهَا بَعْدَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ ، وَأَمَّا تَلْوِيحُهَا بِالْمِرْآةِ فَمَعْنَاهُ أَنْ تَجْلِسَ
 أَمَامَ دُكَّانِ الصَّبَاغِ حَتَّى يَأْتِيكَ رَسُولُهَا ، فَأَيَقَنْتُ صِدْقَ ابْنَةِ عَمِّي فِي
 تَأْوِيلِهَا ، إِذْ كَانَ فِي الزَّقَاقِ دُكَّانُ لَصْبَاغِ يَهُودِيٍّ ، وَعَكَفْتُ خَمْسَةَ أَيَّامٍ مَعَ
 ابْنَةِ عَمِّي وَأَنَا فِي عَذَابٍ أَلِيمٍ ، مِنْ خَوْفِ الْفَشْلِ وَالْإِخْفَاقِ ، وَابْنَةُ عَمِّي
 فِي حَزْنٍ عَظِيمٍ مِنْ أَجْلِي ، وَلَمَّا حَانَ الْمَوْعِدُ ، وَكَانَ يَوْمَ السَّبْتِ الَّذِي تَغْلَقُ
 فِيهِ دُكَّانُ كَيْنِ الْيَهُودِ ، ذَهَبْتُ إِلَى دُكَّانِ الصَّبَاغِ ، فَجَلَسْتُ أَمَامَهُ حَتَّى
 غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَلَمْ يَلْمَخْ نَافِذَةً فَتِيحَتْ ، وَلَا رَسُولًا آتَى ، فَانْقَلَبْتُ إِلَى

البيت يائساً حزيناً ، غضبان ثائراً ، فاستقبلتني ابنة عمي بابتسامة مُشرقة ،
وقالت : لِمَ لَمْ تَبِتْ مع فتاتك الليلة ؟ فدفعْتُها بيدي في صدرها بقوة ،
فسقطت وخذش الجدار جبينها ، فمصبتُ رأسها ، وأقبلتُ على شَهْدُها
من يأسى ، وتَدشُّرُنِي بنيل بُغيتي ، فأخبرتُها بما وجدتُ من إخلافٍ وفشل ،
فقلت : لا تخف ولا تحزن ، إنها تختبرُ حبك ، وتبلى صبرك وبلاءك ،
فاذهبْ إليها في الصباح ، وانظرْ ما تشيرُ به عليك ، فكنْتُ وشروق
الشمس على المصطبة ، شاخصاً بصرى إلى النافذة ، ولبثتُ بضع دقائق ،
أطلَّت الفتاةُ على أثرها من النافذة ضاحكة ، ثم غابت وعادت ومعها مرآة
وكيس ، وأصيصٌ به زرع أخضر ، وقنديلٌ مضيء ، فوضعت المرآة في
الكيس وأحكمت رباطَ فيه ، وألقته في الحجرة من خلفها ، ثم أرختُ
شعرها على وجهها ، ووضعت القنديل على الأصيص لحظة ، ثم أقفلتُ
النافذة ، وولتُ مدبرة ، فلويتُ وجهي إلى ابنة عمي ، التي كانت تحرق
ألماً وغيره ، ولكنها كانت تخفي أمرها إشفافاً على ورحمة ، وأخبرتُها
بما كان من الفتاة هذه المرة ، فقالت : أبشِر بنيل المراد ؛ فقد أشارت
بالمرآة والكيس أن تحضُر إليها بعد غروب الشمس ، وعزّزت ذلك
بارحاء شعرها على وجهها ، وبأصيص الزرع إلى أنك إذا جئت فادخل
البستان الذي وراء الزقاق ، وبالقنديل إلى أنك تؤمُّه ، وتجلس تحتَه حيثُ
ينضى ، مرتقباً حضورها إليك .

ولما جاء الموعدُ أعطتني ابنة عمي حبة مسك قائلة : اجعلْ هذه الحبة

في فلك ، وقت اجتماعك بفتاتك ، ثم قل هذه العبارة عند خروجك :
« كيف يصبر من برّح به الهوى ؟ » .

وفي الموعد المضروب بإشارتها كنتُ أمام البستان ، فألقيتُ بابه مفتوحاً ، وما ولجته حتى لاح لي ضوء قنديل على بعد ، فركبتُ سمتي إليه ، فوجدت القنديل معلقاً في سماء قبة فسيحة مضروبة ، فيها مقعدٌ فاخر ، مفروشةٌ ببساطٍ حريريٍّ مزخرف ، وفي وسط القبة مائدةٌ عليها غطاء حريري رقيق ، وبجانها وعاء خمر ، جلس فوقه كأسٌ من ذهب ، ولكن المكان في سكون عميق ، لا أسمع فيه ركزاً ، ولا أحسُّ أحداً ، فأخذت مكاني على هذا المقعد منتظراً فتأتى ، وجعلت ساعات الليل تنقذُني ، ولكني لم أجِدْ أحداً ، وكان الجوعُ قد اشتدت وطأته بأمعاني ، فكشفتُ عن المائدة غطاءها ، وطعمتُ وشربتُ ، ثم جلستُ أنتظِرُ ، فغلبني النوم ، ولم يخلصني منه إلا حرُّ الشمس ولهيئها ، ووجدتني على الأرض من غير فراش ، وألقيتُ على بطني ملحاً وخملاً ، فنهضتُ قائماً ، ورجعتُ إلى أبنَةِ عمي خائباً ، وسمعتها تقول : حرامٌ على طيب العيش من غير ابن عمي ، وياليت قلبه مثل قلبي .

ولما رأته أقبلتُ على مُسرعة ، وقالت : ما هذه حالُ من حظي بحبيبه ، فماذا جرى ؟ فأنبأتها ما حصل ، فابتسمت في غيظ المحقق الخائف ، وقالت : قوَضَ اللهُ حصنَ من قوَضتُ حصنك ، ووقاك شرَّ كيدٍ هذه الفتاة ، فإني الآن في خوفٍ عليك منها ، فقد بدت لي أنها على علمٍ بالعشق

وأسراره ، وقد تكون عميقة المحال ، فينالكَ منها عظيم النكال ،
وما دمت لا تؤذ الأنفلات من يديها ، فالله يحفظك ويعصمك منها ،
وسأبدي لك سر ما فعلته بك ، أما الملاح فإيماءة منها إلى أنك في حبك
كالطعام الذي نقص ملحُه ، إذ غلبك النوم وهو على العاشقين حرام ،
وأما الفهم فإنها تقولُ به : سوّد الله وجهك ، إذ كنت كاذباً في محبتك
وجعلته وسيلة إلى أن تملأ بطنك ، وتسلم إلى الناس قلبك ، فنزل
قولها من نفسي منزل القبول ، وقلتُ في ذلة ؛ وماذا أفعلُ الآن
يا ابنة عمي ؟ - وكانت تحبني محبة صادقة - فقالت : إن أحب شيء إلى
أن أرضيك ، وإن بذلتُ في ذلك مهجتي ، فاستمع لما أقول : إذا جاءت
الليلة الآتية ، فاذهب إلى مكانك المعبود من بستانها ، واحذر أن تأكل
شيئاً من مائدتها ، حتى لا يقهرَكَ نومٌ أو نعاس ، فقد رأيت أنه يعوقك ،
عن بلوغ مأربك ، ولا تنس أن تبلغها عنى العبارة السابقة « كيف يصبرُ
من برح به الهوى ؟ » . فقلتُ : لن أنسى هذه المرة .

وجلسْتُ في متعمدي تحت القبة المضروبة ، غير أني أكلتُ من
المائدة الموضوعة ، وأغرّني لذة الطعام ، كما دفعني حرقة الجوع ، إلى
العكوف على المائدة حتى شبعت ، فوجدت النوم سبيلاً إلى أجفاني ،
ولم أجِد حيلة أدفعه بها عنى ، حتى أيقظتني شمس الضحى ، فألفيتُ على
بطني قطعة من سمف النخل ، ونواة قمر ، وبذرة خروب ، كما وجدتُ
القبة خالية من كل شيء فيها ، فأسرعت إلى ابنة عمي ، وبلغتها ما كان

في تلك الليلة، وارتقت تفسير رموزها، فقالت : ألم أحذرك ألا كل حتى لا تنام ١.؟ أما القطعة من سعف النخل فإنها إشارة إلى حضور جسيمك، وغياب قلبك، وأما النواة فتلويح بأن قلبك خالٍ من الهوى، وأما بذرة الخروب فتلميح إلى أن الحب ينبغي أن يكون مسلوب الفؤاد، وقد أضعت مظاهر الحب الصادق، بأكلك ونومك، فإن أردت الاجتماع بها فاحذر أن يأخذ الكرى بمقادير أجفانك وإلا ألقيت بنفسك إلى شرٍ وبيل قد لا أستطيع دفعه، ويخيل إلى أنها قد فرغت من رموزها، ولم يبق لديها إلا أن تكيد لك كيداً، بعد هذا الإهمال الطويل، فقلت : ولن تكتحل بالنوم عيني، حتى يابج الجمل في سم الخياط، وسأبلغها رسالتك .

وفي الليلة التالية ودعتها وانصرفت إلى مكاني من البستان، حانداً عزمي على السهر حتى مطلع الفجر، ولبثت أنتظر حتى الهزيع الأخير من الليل، فإذا الفتاة قادمة تخطو وسط عشر جوار كأنها البدر، عليها حلة من الحرير الرقيق المطرز بالذهب، فلما جلست بجواري ضحككت وقالت : الآن أصبحت ذا وجدٍ وهوى، لأن النوم لا يعرف سبيلاً إلى قلوب المحبين، ثم أشارت بطرفها إلى الجواري فقفن راجعات، ثم أقبلت على قائلة : لقد رأيتك فأحببتك، وأود أن تأتي كل ليلة، نقتطعها معاً في أنس ولذة، فقلت أخشى أن يغويننا الشيطان فأعصى الله وأجمع بين القرط والخلخال، فقالت : وذلك ما أردته، وإلا سكنت

قبرك في هذا البستان تلك الليلة ، إنَّ الحبَّ يُعمى ويُصم ، وما دمت تحبني فلن يحول بينك وبين الاستمتاع بحبيبك أيُّ حائلٍ من دُنْيا ودين ، وكان جمالها ملء العين والدم ، وفتنة القلب ، فلما أجدى معي برهان يوسف عليه السلام ، ولبثت معها بقية ليلة ، طلقة الحرية ، ثم ودعتها في الصباح ، وأنساني غرامي بها ، أن أبلغها رسالة ابنة عمي ، وقبل أن أغادر بستانها ، أعطتني هذه الخرقه قائلة : إنها من صنع أختي نور الهدى ، أمنحك إياها لتذكرني بها ، وركبت السبيل إلى ابنة عمي ، التي تقايى آلام حبي ، وتحرس على رضائي ، واتباع رغبتى ، وأخبرتني ما جرى ، فقالت : لا أزال أحبُّ رضاك ، وأدعو الله أن يحفظك ويُنْجيك ، وطلبت إلى أن أحب لها هذه الخرقه ، فمَنَحْتُها إياها ، ولما حان الموعدُ قالت : اذهب إلى فتاتك محوطة برعاية الله وحفظه ، ولا تنس أن تتلو عليها رسالتي الأولى ، فوعدتها أن أنفذَ رَغْبَتَهَا .

ولما دخلتُ البستان وجدتُ الفتاة في انتظارى ، فقضينا هذه الليلة ، على ما قضينا أختها السابقة ، وفي الصباح أقيمتُ في مسَمِعِها رسالة ابنة عمي ، « كيف يصبر من برَّح به الهوى ؟ » فلما سمعتها سَحَّتْ عيناها وقالت : « يدارى الهوى ثم يكتُم السر ويصبر » .

ورجعتُ في زيارتي من عواطفى الثائرة ، ونزعاتى الفاسدة ، لم أستمع فيه صوتاً لضميري ، ودخلتُ بيتي فوجدته في سكون المقبرة ، ووجدتُ ابنة عمي قد حبسها المرضُ في فراشها ، وأتى جالسةً عند رأسها ، تبكى

من لؤم الزمان ، وظلم الإنسان ، فلما دخلتُ عليها قالت أمي : تبأ لك !
 كيف تبرّمُ بابنة عمك ، وتأنّفُ من ملازمتها ، مبتغياً نشوة نفسك في
 مزالق الهوى ، ومفاتيح الشهوة ؟ ! ولكن ابنة عمي التفتت إلى قائلة :
 هل بلغتْ رسالتى ؟ فقلت : نعم ، وأجابتنى بأكية قائلة : يدارى الهوى ثم
 يكتُم السر ويصبر ، فبكت ابنة عمي وقالت : إذا ذهبتَ إليها فقل : كتم
 السرّ وحاول الصبر الجميل فلم يستطع .

فلما قضيتُ ليلة أخرى في لهو بهذه الفتاة ، وأبلغتها في الصباح
 رسالة ابنة عمي ، تقاطر الدمعُ من عينيها ، وقالت : إن لم يستطع صبرا
 فالمت سبيله ، ثم نشطتُ ساعيا إلى ابنة عمي ، والمرضُ لا يزالُ يرمض
 جوانحها وأمى لا تنفكُ جالسةً بجوارها ، فقرأتُ عليها ما قالت فتأتى ،
 فحركت ابنة عمي لسانها وقالت : سمعنا وأطعنا ، وسلامٌ على الصابر يوم
 يُبعثُ حيّا .

وذهبتُ في موعدي ، فوجدتُ الفتاة في انتظارى ، فلما كان الصباح
 قرأتُ عليها ما قالت ابنة عمي ، فصكّت صدرها بيديها وقالت في ألم
 مُمض ، وأسفٍ لاذع : لقد ماتت ! ! أتتُرفُ من حملتك هذه الرسالة ؟
 فقلتُ : إنها ابنة عمي ، فقالت : كذبت وافتريت ، لو كانت كما قالت
 لحملت لها من الحب ما حملته لك ، ولقد قتلتها بصدك وإعراضك ،
 ولو علمتُ حالها من قبل ، ما مهدتُ لك سبيل الاتصال بى ، فقلت : إنها
 ابنة عمي ، فنيتُ في شخصي ، وحرصتُ على راحتي ورضائي ، وهى التى

كانت تفسرُ الغازك لي ، وما وصلتُ إليك إلا بمشورتها وتديرها ،
 فقالت : قتلك الله كما قتلها ، ثم غادرتها وأنا شارِدُ اللَّبِّ ، مُضطربُ الخطأ ،
 بِرَمِّ بالحياة ، فألفيتُ البيتَ غارقاً في لجةٍ من حزنٍ أليمٍ ، وعلمتُ أنها
 أسلمتُ روحها إلى بارئها ، وشيَّعها أبي إلى قبرها ، ولبثنا في المقبرة عندها
 ثلاثة أيام ، في حَسرةٍ شاملةٍ : وحزنٍ مُقيمٍ .

ولما رجعنا إلى البيتِ سألتني أمي عما كنتُ أفعله بها ، حتى قضيتُ
 عليها ، فقد حاولتُ أن تعرف من ابنة عمي شيئاً من حياتي معها فما أفضتُ
 إليها بقليلٍ ولا كثيرٍ ، ولكنها قالت : عفا الله عن ابنك ، ولا جازاه
 بفعله ، وأخبريه أن يقول للفتاة التي يترددُ عليها : الوفاء كرم ، والغدرُ لؤم ،
 قالت أمي : ثم ناولتني شيئاً لك وقالت : لا تعطيه إياه حتى يبكي على
 حياتي مرَّةً البكاء .

ولقد كنت لا أزالُ في غمرة الهوى ، ونشوة الفرج بفتاتي ،
 وما أقبلت الليلة الرابعة حتى كنتُ عندها ، فألفيتها تتقلبُ على حجرٍ من
 الصبر والانتظار ، مرتقةً عودتي ، فما رأيتني حتى نهضت سائلة : كيف
 حالُ ابنة عمك ؟ فقلتُ : لحقتُ بربِّها وشغلنا هذه المدة بتشجيعها ، وتقبل
 العزاء فيها ، وقد جئتُ إليك بعد أن نفضنا أيدينا من ترابها ، فقالت :
 رحمها الله ، فقد كنتُ سبباً في موتها ، وأخشى أن ينتقمَ الله منك لها ،
 فقلت : لقد صفحتُ عني ، ووهبتُ لي دمها وأوصتني أن أقول لك ، إذا
 ما جئتُ إليك : الوفاء كرم ، والغدرُ لؤم ، فقالت : رحمها الله ، فقد

خلصتك من شرى حية وميتة ، فمجيبتُ أن سمعتُ منها ذلك ، وقلت : وهل كنتُ أتوقعُ منكِ شرا بعد هذه المودة ؟ فقالت : النساء ناقصاتُ عقلٍ ودين ، إلا من عصم الله ، وكيدهنَّ إلى ذلك عظيم ، وإنى أحذركِ ألا تتصلِ بامرأةٍ غيرى ، فقد تقعُ في حبالٍ مأكرة ، ويحلُّ بكِ على يديها النكالُ والوبال ، ثم أخذتُ على الموائيق والمهودَ ألا أنقطعَ عنها ، ولبثتُ معها على أهنأ بال ، وأسعدِ حالٍ ، اثني عشرَ هلالا .

وذات يوم خرجتُ من حمام المدينة ، أرفلُ في حلقى القشبية ، وبينما أنا سائرٌ إلى منزلى ، إذا عترضتُ سبيلى عجوزٌ تمشى على ثلاثٍ من ساقين مرتمشتين ، وعصا غليظة ، قد انحنتُ عليها انحناء القوس ، فنادتني في صوتٍ متهدج ، فأسرعتُ إليها سائلا : نعم يا سيدتى ، ألك حاجة ؟ فناولتني كتابا قائلا : اقرأ لي هذا الكتاب ، عافاك الله ونجاك ، فقرأته عليها ، فإذا هوَ ينبئُ عن وجودِ ابنِ لها في مدينةٍ سحيقة ، وهوَ في صحةٍ وعافية ، ويمدُّها بالحضورِ إليها قريبا ، ثم ناوتها الكتاب ، وانتحيتُ ناحية ، لأقضى لي حاجة ، ولما انتهيتُ منها ، رأيتُ العجوزَ مقبلةً على مرةٍ ثانية ، ترجوئى أن أذهبَ معها إلى بابِ منزلٍ - وأشارت إليه - لأقرأ الكتاب ، بحيثُ تسمعه بنتها ، حتى تستوثقَ من وجودِ أخيها ، الذى فابَ عنها عشرَ سنين ، منقطعة أخباره ، حتى يئستُ من لقائه ، فذهبتُ معها ، ووقفتُ أمام الباب ، وأخذتُ أقرأ الكتاب ، وبينما أنا أقرأه ، إذ دفعتنى العجوزُ بقوة ، فدخلتُ المنزل ، ودخلتُ هى من خلفى على

عجل ، وأحكمت إغلاق بابيه ، فرأيتني أمام فتاة ناهية ، تتألق وضاعةً وجمالاً ، فضحكت في وجهي ، وأمسكت بيدها يدي ، فأحسستها أنعم من الحرير ، وألّين من النسيم ، فمراني خدرٌ وحيرة ، فابتدرتني قائلة : الحمد لله الذي جاءني بك ، فقد كنت أخشى أن يصيبك شرٌّ من بنت الدليّة المحتالة ، التي لبثت في صحبتها سنة أو تزيد ، وقد أتعبتني في الحصول عليك ، والاحتيال في اختطافك من يديها ، إشفافاً عليك مني ومكرمة ، فإنها لم تترك شاباً إلا صاحبته ، حتى تُشبعَ نهم شهوتها ، ثم تهضر غصن حياتها ، وتبحث عن آخر تنفذ فيه نهجها ، وشريعة هواها ، وقد حان الوقت الذي تنتهي فيه حياتك معها ، فاحمد الله الآن على نجاتك منها ، واحمد لابنة عمك فضلها ومعروفها ، وقد حفرت بيدك قبرها ، وكانت لك أمان وقاية في مخياها ومماتها ، ولولاها لكنت تراباً ، ولقد أردتُك لنفسى ؛ على سنة الله ورسوله ، لتحّي نفساً بنفسٍ ، وتردّ نعمةً بنعمة ، فقد شغفتُ بك حباً ، ولن أكلّفك شيئاً من مشئون المعيشة ، ولا أبتنى منك إلا ما تبغيه زوجٌ صالحة ؛ من ولدٍ يعبد الله ، وينفع عباده ، فقلت في نفسي : إن الحسنات يذهبن السيئات ، والحمد لله الذي بدّلني بحياة صابئة خائنة ، حياةً صالحةً بريئة ، ثم نظرت إليها قائلاً : ذلك فضلُ ساقه الله لي ، لا كفرَ عن خطيئتي ، وآتوب إليه متاباً ، فقد أضعتُ من عمري مدةً غيرَ قصيرة ، في مجونٍ ولهوٍ لا يليقانِ برجلٍ يؤمن بالله ورسوله ، فأحضرت المأذون والشهود ، وارتبطنا برباط الزوجية ؛

وقضيتُ معها ليلةً ساهرةً ناعمةً ، كلها لذةٌ ومُتعةٌ ، ولما أردتُ الخروجَ في الصباحِ قالتُ : إنَّ بابَ هذا المنزلِ لا يفتحُ كلَّ عامٍ إلا مرةً واحدةً ؛ وأمامك اثنا عشرَ شهراً حتى يفتحَ المرةَ التاليةَ ، وهُنا ما نحتاجُ إليه من زادٍ وماءٍ ولباسٍ ، فلم أخرجَ ولبثتُ معها سنةً كاملةً ، رزقتُ فيها بغلامٍ منها ، ولما كان وقتُ العشاءِ فتُحَّ البابُ ، فهِممتُ بالخروجِ فقالتُ : على أن تعودَ الليلةَ ، وأخذتُ علىَّ المهودَ والمواثيقَ بذلك ، ثمَّ برحتُ مسرِّحاً إلى البستانِ ، فلما وجدتُ بابَه مَفْتُوحاً ، سُغِيتُ بأمرِهِ ، وظننتُ أن قد تغيَّرَ وضعُهُ ، وتبدَّدَ شملُهُ ، إذ لم يكنْ مُستَساعِفاً عندي أن تلبثَ الفتاةُ مرتقبةً عودتي إليها سنةً كاملةً ، فأردتُ أن أتبيِّنَ الأمرَ قبل أن أرجعَ إلى أمِّي وأبي ، ودخلتُ البستانَ ، فأدهشني أني وجدتُ الفتاةَ جالسةً ، وقد أسندتْ رأسها إلى يديها ، وحالَ لونُها ، ونَحَلَ جسمُها ، فلما رأتهُ فرحتُ ، وهبتُ واقفةً ، حامدةً لله سلامتي ، فقلتُ : كيفَ عرفتَ أنني قادمٌ إليك الليلةَ ؟ فقالتُ : لا أدري شيئاً عن قدومك الليلةَ ، ولكنِّي على هذه الحالِ سنةً كاملةً ، ولعلَّ خيراً غُيِّبَتْكَ عنى هذه المدةَ المديدةَ ، فأفضيتُ إليها بكلِّ شيءٍ ، وعرفتُ مني أنني طائدٌ إلى زوجتي الليلةَ ، فاغبرَّ وجهُها ، وحدقتُ ببصرها ، وقالتُ : لا يصلحُ لي من كان له زوجةٌ وولدٌ ، والآنَ قد نفضتُ منك يدي ، وسأجرِّعُ زوجَكَ الماكرةَ ، كأساً مريرةً ، من الحسرةِ عليك ، والحزنِ لفقدِكَ ، وسأُلحِّقُكَ الليلةَ بآبنةِ عمِّكَ ، التي وقَّتَكَ في حياتها ، فهي في آخرتها أولى بك مني

ومن زوجك ، فقلت : ألا تذكرين وصيتها ، لتكرميني بعد مماتها ،
 إذ قالت : الوفاء كرم ، والقدركم ١٢ فقالت : رحمها الله ، ومن أجلها
 سأبقى على حياتك ، على أن أجعلك غير صالح لامرأة ، وصاحبت لجأها
 عشر من الجوارى أمسكنني ، حتى قطعت مجرى البول مني ، ووضعت
 مكان القطع ذرورا يحبس الدم ، ويعنمه أن يسيل ، وأنا أستغيث بها
 باكيا ، ثم ألقيت بي أمام البستان طريدا منبوذا ، فأنستني النجاة بنفسى
 ما حل بي من تلك المصيبة الخالدة ، وذهبت في التو إلى زوجي ، وأنا
 مبهور النفس خائر القوى ، فارتاعت لمقدمي على هذه الحال ، وجلست
 بجاني ، تعرف ما ذهاني ، فعلمت مني كل ما فعلته بنت الدليلة المحتالة ،
 وكشفت عن موضع القطع مني ، ولما استوثقت من صدقي ، أمهلني حتى
 غرقت في نومي ، ولم أدر ما أضرت في نفسها من خير أو شر لي ، ولكنني
 صحت بعد مطلع الفجر ، فوجدتني ملقى على الأرض أمام بيتها ، فعلمت
 أنها نبذتني نبذ النواة ، بعد أن بتر مني عضو النسل وبقاء النوع ، فلم
 أجد وسيلة إلا أن ألوذ ببيتى ، وأرتعي في أحضان أبي وأُمي ، عائدا
 بحنانهما الذي لا تزيد الحوادث إلا قوة وبسطة .

وجدت أمي غارقة في دموعها ، تظللها حشرات من آلامها ، لنيتي
 غيبة مجهولة المرجع والمصير ، فألقيت بنفسى بين يديها ، فما كادت
 تفرح بأوبتي ، حتى اسودَّ وجهها ، أسفا على ما أنا فيه من تغير حال
 وسوء منقلب ، وقامت لساعتها فأحضرت ما لديها من طعام وشراب ،

ونشطت لمؤاساتي ، والحفاوة بمقدمي ، حتى طعمتُ وشربتُ ، ثم جلستُ
تسألني عن حياتي مدة غيبتني ، فلم أترك شيئاً سرّني أو أحزنني إلا أخبرتها
به . فقالت : ذلك جزاء ابنة عمك ، التي اشترتُ رضاك وراحتك بحياتها ،
فقلت . رحمها الله ، فقد كنتُ أحبُّ إليها من نفسيها ، وأرجو من الله
أن يغفر لي خطيئتي ، ويتقبلَ توبتي ، وبعد سكتة قصيرة قلت : عسى أن
يكون أبي في خيرٍ وعافية !! فقالت ، منذ عشرة أيام هاجر من دنياء
إلى آخرته ، فسبختُ في بحرٍ من الهموم ، لا أدري له مَدَى ، أسفاً على
أبي وابنة عمي ، ثم قالت أمي : جاء حينُ إعطائك وديعة ابنة عمك لك ،
وناولتني هذه الخرقه ، فوجدتُ فيها وصيةً لي من ابنة عمي تقول : إذا
أصابك الضرُّ من بنتِ الدليّة المحتالة فاقطعْ صلتك بالنساء ، ولا تسكنْ
إليها ولا إلى غيرها واتخذِ الصبرَ لك جنةً ، والحمد لله الذي جعلَ وفاتي
قبلَ يومك ، حتى لا أتجرّع كأسَ الحزنِ لفقدك ، واحتفظُ بهذه الخرقه ،
واحذرْ أن تقتربَ من صاحبتيها ، أو من إحدى النساءِ غيرها ، واعلمْ أن
صاحبة هذه الخرقه دنيا بنتُ ملكِ جزائرِ الكافور ، وهي تصنعُ كلَّ
سنةٍ واحدةٍ منها ، ثم ترسلُها إلى الأقطارِ ليُشيعَ ذكرها ، فلما وقعتُ
في يدِ بنتِ الدليّة المحتالة ادعتُ كاذبةً أنها لأختها ، لتستهوي بها من تشاء
من الفتيان ، ثم لبثتُ متلقفاً برداء الحزنِ والهمِّ اثني عشرَ شهراً ، فرأتُ
أمي تجاراً من مدينتي ، يتجهزونَ للسفرِ ببضائعهم ، فأشارتُ على أن
أسافرَ ببضاعتهم معهم ، عسى أن ينفسَ عني طوافي بالبلاد ، ما ألمَّ بي من

مكروهٍ وضيّر ، وسرتُ مع صَاحِبِي ببضائنا ، تدفعنا مدينة إلى مدينة ،
حتى كُنَّا بينَ يديكَ ، فقال تاجُ الملوك : يَحْيَلُ إِلَى أَنْ مَا أَصَابَكَ لَا تَحْتَمِلُهُ
الجبال ، ولكِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ ، فقلت : سَلْ مَا شِئْتَ ، فقال : هلْ
تعرف شيئاً عن السيدة دنيا بنتِ ملكِ جزائر الكافور ، وصاحبةِ هذه
الحُرقة ؟ فقلت : بَلَّغْنِي مِمَّنْ رَأَاهَا رَأَى الْعَيْنَ أَنَّهَا مُنِحَتْ مِنْ جِوَالِ الْخَلْقَةِ
مَا لَمْ تُمْنَحْهُ أُخْتُ لَهَا ، ولو أَنِّي لَمْ أَقِفْ مَرْيَةَ الرِّجَالِ مَا عَاقَنِي عَنْ الْوَصُولِ
إِلَيْهَا عَائِقٌ ، وَإِنْ فَنَيْتُ فِي سَبِيلِهَا .

وَشَغِفَ تاجُ الملوكِ حُبًّا ، بِابْنَةِ الْمَلِكِ « دنيا » ، وحلتْ مِنْ نَفْسِهِ
مَحَلًّا عَظِيمًا ، فَأَخَذَنِي إِلَى مَدِينَتِهِ ، وَأَوْدَعَنِي دَارًا مِنْ دُورِهِ ، أَقِيمُ فِي ظِلَالِ
وَارِفَةٍ ، مِنْ كَنْفِهِ وَرَعَايَتِهِ ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى قَصْرِهِ ، وَقَلْبُهُ فِي شُغْلِ السَّيِّدَةِ
دُنْيَا ، وَكَيْفَ يَحْصُلُ عَلَيْهَا ، وَبَرَّحَ بِهِ الْوَجْدُ وَالْحَنِينُ ، حَتَّى تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ؛
وَهَزَلَ بَدَنُهُ ، فَسَأَلَهُ وَالِدُهُ عَمَّا يَشْغَلُهُ ، حَتَّى بَرَى جَسَمَهُ ، فَأَخْبَرَهُ بِحُبِّهِ
دُنْيَا ابْنَةَ مَلِكِ جَزَائِرِ الْكَافُورِ ، فَقَالَ وَالِدُهُ : إِنَّهَا بِنْتُ مَلِكٍ ، وَبِلَادُهُ فِي
مَكَانٍ سَحِيقٍ عَنَّا ، وَلَا نَسْتَطِيعُ الْوَصُولَ إِلَيْهَا إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ . وَأَرَى
أَنْ تَدْخُلَ قَصْرَ الْوَلَدِ ، فَإِنَّكَ وَاجِدٌ فِيهِ خَمْسًا ثَلَاثِينَ جَارِيَةً ، كَأَنَّهِنَّ الْحُورُ
الْحَسَنَاتُ ، فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ مِنْهُنَّ مَنْ تَشَاءُ . وَإِلَّا فَاطْلُبْ بِنْتًا غَيْرَ دُنْيَا مِنْ
بَنَاتِ الْمُلُوكِ ، فَقَالَ تاجُ الملوكِ : لَا أُرِيدُ سِوَاهَا ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ
بِدُونِهَا ، فَقَالَ وَالِدُهُ : مَا دُمْتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَأَتْنِي زُوَيْدًا ، حَتَّى أُرْسَلَ
فِي طَلِبِهَا ؛ وَلَعَلَّهَا تَكُونُ مِنْ حَظِّكَ .

ثم أحضر الملك الشاب الذي أحضر الخرقه ، وكان يسمى عزيزاً
وسأله : هل تعرف الطريقَ إلى مدينة السيدة دنيا ؟ فقال : نعم ، فبعثه
هو ووزيرَه إلى أبيها ملك جزائر الكافور ، ومعهما من الهدايا الفاخرة
ما يليقُ بتلك الوفادة ، ومن الرجالِ والخدمِ ما يؤنسُهما ويقومُ بخدمتهما
وقطعوا في السفرِ الأيامَ والليالي ، حتى أوقفوا على جزائر الكافور ، فألقوا
على شاطئِ نهرٍ عَصَا رَحِيلِهِمْ ، وأوفدَ الوزيرُ من عنده رسُولاً إلى الملكِ
يخبره بقُدومهم ، فاستبشَرَ الملكُ بهذا القُدومِ الميمونِ ، وبعثَ مع
الرسُولِ الحجابَ والأمرأ ، يستقبلونَ الوزيرَ ومن معه ، ويصحبونهم
إلى مَليكَهم ، في حفاوةٍ وتكريمٍ .

وجاءوا الملكَ ، وقَدَّموا له الهدايا ، ومكثوا في ضيافته أربعةَ أيامَ ،
يتقبلونَ على فراشٍ من كَرَمِ الملكِ وفضله العظيم .

وفي اليومِ الخامسِ بَلَغَ الوزيرُ رسالته ، فأطرقَ الملكُ مَلِيّاً يَفْكُرُ
في أمرِهِ ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ زُهْدَ ابنتِهِ في الزواجِ ، وَبُغْضَها لِيَاهِ ، ثُمَّ اسْتَعَفَّتْهُ
قَرِيبَتُهُ ، فَأَرْسَلَ أَحَدَ حُجَّابِهِ إلى ابنتِهِ ، يَسْتَشِيرُها فيما جاء به وزيرُ الملكِ
سليمان شاه ، فَمَا أَلْقَى عَلَيْهَا رِسُولُ أَبِيها هَذَا النَّبَأَ ، حَتَّى غَضِبَتْ غَضَبَةً
عَنِيفَةً ، وَهَمَّتْ بِهِ لَتَقْتُلَهُ ، وَلَكِنَّا عَفَّتْ عَنْ ظُلْمِ الرِّسُولِ وَإِهَاتِهِ ،
وَحَمَلَتْهُ رِسَالَتِها إلى أَبِيها قَائِلَةً : لَيْتَ أَكْرَمَنِي أَبِي عَلَى الزَّوْاجِ فَسَأَذِيقَ
زَوْجِي المَوْتَةَ الكُبْرَى وَأَتَبُيْها بَنَكِبَةٍ فِي نَفْسِي ، لَا تَجْعَلُنِي حَيَّةً أَسْمَى ،
فَأَسْرَعَ الرِّسُولُ إلى الملكِ وَبَلَغَهُ الرِّسالةَ ، وَمَا حَاقَ بِهِ عِنْدَها مِنْ

خطورة ، فقال الملك للوزير : لتشهد أمام ملكك بما علمت ورأيت ،
ولتبليغه أني فرح بهذا الزواج ، ولكن ابنتي صادفة عنه ، وفي ثورة
خطيرة ، ولا أدري لذلك علّة ، فشكر له الوزير جميل لقائه ، وحسن رأيه ،
وذهب إلى الملك سليمان شاه ، وأخبره بكل ما رأى وعلم ، فأحضر ابنه
تاج الملوك ، وشرح له أمر السيدة دنيا على حقيقته ، وخشى أن يُصرّ على
الاستمساك بها فتكون الطريق إلى شقوته ؛ فقال تاج الملوك : دعني
أعالج أمر زواجي بها بنفسى ؛ ولأن أصدف عنه بأية حال ولو كان فيه
حتي ، فقال أبوه : وما دُمت مُتشبها بها فليكن في صحبتك الوزير
وعزير ، فإني لا آمن عليك أن ترحل إليها وحدك ، فقال تاج الملوك :
هذا حسن ، وسنذهب إليها في هيئة تجار ، يؤمون المدن بيضائهم ،
وأمدّ الملك ابنه بالمال الوفير ، ليكون ردها له في رحلته ، ورزموا
بضاعتهم وساروا بها حتى كانوا بمدينة السيدة دنيا ، فدهش تجارها لما
رأوا من جمال تاج الملوك ، ووضاعة خلقه ، ودلّوهم على شيخ سوق المدينة
فذهب الوزير وتاج الملوك وعزير إليه ، فأحسن استقبالهم ، وأكرم
قدومهم ، وسألهم عن حاجتهم ، فقال الوزير : إني رجل قطعت من العمر
معظمه ، ومعى هذان الغلامان نؤم المدن ببضاعتنا ، فنقيم سنة في كل
منها ، نمارس التجارة ، ونزود من أحوال الناس ، ثم نغادرها إلى غيرها ،
وقد جئنا مدينكم هذه ، نبني المقام فيها سنة ، ونرجو منك أن تهني لنا
دكانا نمرض فيه ببضاعتنا ، المدة التي نقيمها بينكم ، فقال الشيخ : رجاء

مقبولٌ ، وأمرُ مطاعٌ ، وكان قد فرِحَ بالغلامين ، وملاً حبُّهما قلبه .
وجعلَ يَختلفُ إليهما في دكانِهما ومنزلِهما من حينٍ إلى حينٍ ، وشاعَ أمرُهم
في المدينة ، وعُرفوا بحُسنِ السيرة ، وجودةِ البضاعة ، وأتى إليهم الناسُ
من كلِّ حدبٍ ، ليشهدُوا بضاعتَهم ، ويبتاعوا لأنفسهم منها ما يريدون .
وبينما عجوزٌ سائرةٌ وخلفها جاريتان ، إذ لُحِتَ تاجُ الملوكِ في دكانه ،
فخبسَها في مكانِها جمالُه ، وجعلتُ تقول : سبحانَ من جعلَ فتنةً
للعالمين ، ومالتُ إليه وسلَمتُ ، فردَّ السلامَ هشاً بهشاً ، وأجلسَها بجواره ؛
وعلمتُ منه أنه غريبٌ ، نَزَحَ إلى هذه المدينة ، للتجارةِ والمعرفةِ وإفادَةِ
الخبرة ، فقالت : أشرقتُ بك المدينة ، ونزلتَ فيها على الرُحْبِ والسمة ؛
وماذا عندك من القماش ، أرني أجودَ ما لديك ، فقال : لدىَّ كثيرٌ من
قماشٍ يمايزُ جودةَ وقيمةَ ، وفيه ما يصلحُ الملوكِ وبناتهم ، فلمنَ تريدُ
القماشَ حتى أعرضَ عليكِ ما يليقُ به ؟ فقالت : أريدُ قماشاً يصلحُ
للسيدةِ دنيا بنتِ ملكِ جزائرِ الكافور ، فانقلبتُ حاله ، إلى بشرٍ يتهلَّلُ
في وجهه ، وأملٍ باسمٍ يتألقُ في ثغره ، ويحيى في جسده ودمه ، وقال
لعزيز : هاتِ أنخمَ ما عندك من القماش ، فأحضَرَ قطعاً جيدة لا تجدُها عند
تاجرٍ آخر ، واختارتُ منها ما تبلغُ قيمتهُ ألفَ دينار ، وقالت اقترِخْ
ما تشاء من الثمن ، فقال ، ثمَّه أنا عرفناكِ ، وحظينا برؤيتكِ ، وأن
تَتَقَبَّلِيهِ هديةً ، فقالت ، يا بُنَيَّ أشكركُ ، فما وجدتُ مثلَ ملاحَةِ
وَجْهِكَ ، وحلاوةِ قولِكَ ، وعذوبةِ طبعِكَ ، سَعِدْتُ فتاةً كنتُ لها

وكانت لك ، وسعد فراشُ جمعكما على سنةِ الله ورسوله ، ما اشمك أيها الشابُّ الكريم ؟ فقال تاجُ الملوك ؛ فقالت : لئن صدقَ حدسي فأنت ابنُ ملكٍ ، فقال : وأنّى لكِ هذا ؟ فقالت : هذا الاسمُ لا يكون إلا في قصور الملوك ، فقال : جئتُ أهلى على شوقٍ للولدِ عظيمٍ ، فكنت عزيزاً لديهم ، فاختراروا هذا الاسمَ لى ، فقالت : وقالَ اللهُ أعينَ الحساد ، فقد قهرتَ بجمالِكَ عزّةَ العباد .

وودعته إلى السيدةِ دنيا ، ووضعت القماش بينَ يديها ، فراق في عينيها ، وملكَ عليها مشاعرَها ، فقالت العجوز : لا تعجبي من القماشِ وحُسنِهِ ، ولكنَّ العجبَ من جمالِ بائمه ، وكأنَّه من غلمانِ الجنة ، فلو اجتمعت به ياسيدتى ليلة ما ابتفيت عنه حولاً ، ولا رضيت منه بديلاً . فطامنَ هذا القولُ من اعتزازِ دنيا بجمالها ، وترفعها به ، أن يمسه بشرٌ ، ثم ساورها شكٌّ في قول العجوز ، فرجعت إلى إباها وترفعها وقالت : ناوليني القماشَ حتى أخصه جيّداً ، وبينما هى تُقلّبه فلا ترى فيه إلا ما يروقها ، ساورها أن العجوزَ صادقة ، فقالت : هل سألتَ الشابَّ عن حاجةٍ له ، حتى يكون لنا يدٌ في قضائها ؛ فقالت العجوز : لا حُرماً صدقَ فراستك ، وسموّ نفسك ، وهل يخلو أحدٌ في الدنيا من مأربٍ يطلبه ويسعى إليه ؟ فقالت : بلغيه سلامنا ، وأن المدينةَ شرفتْ بقدومه ، وأننى طوعُ أمره ، فيما يبنى من حاجة . وكان هذا البلاغُ برداً وسلاماً على فؤادِ تاجِ الملوك ، وناولَ من فوزه العجوزَ ألفَ دينار ، شاكرآ لها حكمةَ

سفارتها ، وحبها إياه الذي يبدو في عينيها ، وقال : حاجتي أن تسكرمي بإعطاء كتاب مني إلى السيدة دنيا ، على أن تأتيني منها بما تجيب ، فقالت : اكتب ما شئت فسيصلها في الحال ، فكتب : « ضيف مدينتك يشكرُك ، ويرجو أن تسكرمي بزيارتك ، فقد أحبك ، وزاد هياماً بلقائك » .

ثم طوى الكتاب ، وناول العجوز إياه ، فلما رأتها السيدة دنيا قادمة قالت : أخشى أن يكون قد عفا عن طلب ما ينبغي ، فقد وددت أن أفضي له ما يشاء ، فقالت العجوز : أمرني بإعطائك هذا الكتاب ، ولا أدري ما يحتويه ، فلما قرأته حامت على وجهها سحابة من ألم وقالت : لولا أنني أخاف من ربي يوماً عبوساً قطريراً لصليت هذا الشاب أمام دكانه . ثم أطرقت ساهمة ؛ فقالت العجوز : وماذا أغضبك من كتابه وأنت الراغبة في قضاء ما ربه ؟ فقالت : جنح بطلبه لما أكرهه ، فكله عشقٌ ومحبة ، وأين أنا من هذا التاجر الجوال في البلاد حتى ينشد حبي وولمي به ؟ فقالت العجوز : وهل يضر السحاب ، نبح الكلاب ؟ ومن الرأي أن تجييه مهددة إياه بالقتل إن لم يرتدع عن ذلك الهذيان ؛ فقالت : على بدواة وفرطاس ، وكتبت : « لا تلتمس ما لا يُنال ، وإن عُدت إليه أصابك حد الحسام » .

ثم طوت الكتاب ، وألقت به في حجر العجوز ، ولما تجلّى الصباح ذهبت إلى تاج الملوك ، وأعطته الكتاب وقالت : لقد ثارت السيدة دنيا

بعد قراءة كتابك ثورة غيظ عنيفة ، ولكنى هذّدت ثورتها ، وكفّـكفت من غيظها ، حتى ضحكـت ورقت لك ، وكتبت إليك هذا الكتاب ؛ فشكرها تاج الملوك وأمر عزيزاً أن يُعطى ألف دينار ؛ ولما قرأ الكتاب وجّم يائساً ، وأطرق حزينا ، فقالت العجوز : وما أفزعك من كتابها ؟ فقال : تهدّذنى بالقتل إن لم أكف عن مراسلتها ، وإنّ الموت أحبُّ إلى نفسى من حياةٍ لا تجمّنى بها . فقالت : هَوِّنْ على نفسك ، فسأكون عوناً لك على تحقيق مُرادك ؛ فقال تاج الملوك : ولكِ عندي خيرُ الجزاء ؛ ثم كتبَ فى قرطاس : « ما منع التهديدُ مُحِبّاً صدقتُ محبته ، وبرئ مقصده ، وهذه أُمْنِيَّةُ أَسْتَعْذِبُ فيها ورَدَ الرَّدَى ، والحرُّ الكريمُ لا يَحِبُّ إلا حُرّاً كريماً » .

ثم ناولها الكتاب ، ورَجَا منها أن تضعه فى يد السيدة دنيا ، وتساعدَه فى تمكينه من قلبها ، فقالت : طِبُّ نفساً ، فسيُعْطيك ربُّك فَرَضِي . ولما ناولتها العجوزُ كتاب تاج الملوك وقرأته ، استمر غيظُها وقالت : إنّ هذا الشاب لا يزال يطمع فينا ، فاذهبى إليه ، وأنذريه القتلَ إن لم يكف عن هذا . فقالت العجوز : يحسنُ أن تكتبى هذا حتى يشتدَّ خوفه ، ويُحْجِمَ عن مطلبه ، فكتبت : « تُرَجِّى وَصْلاً دونه إدراك الشَّها ، ولن يَطْمَعَ فيه إلا مغرور ، فدعْ عنك هذا وإلاّ فقد حقَّ عليك الثُّبُور » .

ثم طوت الكتاب ، وأمرت العجوزَ أن تُسرِعَ به إليه ؛ وما قرأه



تاجُ الملوك حتى زفرَ زفرةً حارةً وكتب : « أحبيناك وصَدَقْتَ محبتنا ،
فإِذَا وَصَلْتَ وإِذَا هَجَرْتَ ، وما أَبَدَ هَجَرَ الكَرِيمِ للكَرِيمِ ! ولست
عن حبك راجعاً حتى يعودَ اللبنُ دماً » . وناولَ المعجوزَ الكتابَ ومِعه
ألفُ دينارٍ وقال : هذا آخرُ كتابٍ أُرسلهُ ، وإِذَا أَمَرُ وَذَا وَحِبَّةٌ ، وإِذَا
أَمَرُ هَجَرَ آوَقَطِيمَةً فقالت : إِنَّكَ عِنْدِي كَنُورٍ عَيْنِي ، ولا تَظُنُّ أَنِي
عاجزةٌ عن الجمعِ بَيْنَكُمَا ، فهوَ لا يَكْفِي من المَكْرِ والمِحَالِ شيئاً ، فقَرَّ
عَيْنًا ولا تَجزع ، ثم دَفَنَت ورقةَ تاجِ الملوكِ في شَعْرِ رَأْسِهَا ، وَذهبت إلى
السيدةِ دُنْيَا ، وقالت : ناولتُهُ كتابَكَ وتركتهُ ، ولا أدري شيئاً من أمره ،
ولم يخبرني شيئاً أَبْلَغهُ ، في المدةِ التي جَلَسْتُهَا عنده ، وبعدَ سَكَنَةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ
قالت المعجوزُ : أَشعرُ بورمٍ يَسِيرُ في رَأْسِي ، ولا أدري له سَبَبًا ، فقالت
السيدةُ دُنْيَا : لا بأسَ عَلَيْكَ ، أَرِنِيهِ حتى أَتَيَّنَهُ ، وجعلت السيدةُ دُنْيَا
تَنكِتُ في شَعْرِهَا حتى سَقَطَت الورقةُ . فقالت : وما هَذا ؟ فقالت
المعجوزُ : ربما عُلِقَتْ في شَعْرِي وأنا جالسةٌ عندَ التاجرِ ، هَاتِيهَا لِأُرَدِّهَا
إِلَيْهِ إِنْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِهِ . فلَمَّا قَرَأَتْهَا السيدةُ دُنْيَا عُلَتْ وَجْهَهَا غَضَبَةً
حَاقَّةً وقالت : مَا جَرُّ عَلَى هَذَا البَلَاءِ إِلا أَنْتِ أَيُّهَا المعجوزُ المَاكِرَةُ ،
لَأُعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا ، جزاءَ مَا قَدَّمْتَ يَدَكَ ، وَأَمَرْتُ الجَوَارِي أَنْ
يَضْرِبْنَهَا ، ولَمَّا أَشْبَعَتْهَا ضَرْبًا قالت : لولا خَافَتِي مِنَ اللَّهِ لَقَتَلْتُكَ ، وَأَمَرْتُ
بِإِقَامِهَا أَمَامَ البابِ ، فَقَامَتْ وَهِيَ مِنْهُوكةُ القُوَى إلى مَنْزِلِهَا ، ولَمَّا جَاءَ
الصَبَاحُ كَانَتْ فِي دُكَّانِ تاجِ الملوكِ ، فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا نَالَهَا مِنْ أَذَى فِي سَبِيلِهِ ،

فتألم من أجْلِها قائلاً : اغفري لي ما أصابك من مكروهٍ بسببي ، فقالت : لا ضيرَ عليك ، ولن أبرحَ عنها حتى أجمعَ بينك وبينها ؛ فسألها عن سبب نفورها من الزواج فقالت : ما رأتهُ في منامها ، فقال : وما ذلك ؟ فقالت : رأيتُ في المنام أن صياداً نشرَ شبكتهُ ، فعلقَ بها ذكراً حمامٍ كان مع زوجته ، فلم تتركهُ الحمامة ، وجعلت تنقرُ في جزءِ الشبكة ، الذي علقَ بزوجها حتى خلصته وطارا ، فجاء الصيادُ وأصلحَ شبكته ، وتركها ليعلقَ بها الحمام إذا حطَّ عليها ، فعلمت الشبكةُ هذه المرة بالأنثى ، فتركها زوجها وطار ، في غير اهتمامٍ بشأنها ، ولما جاء الصيادُ أمسكها وذبحها ؛ فقالت السيدة دنيا في نفسها : هذه شريعةُ الرجال ، لا مروءةَ فيها ولا وفاء . . وذلك سببُ نفورها من الزواج . فقال تاج الملوك : ودِدْتُ لو أراها مرةً واحدة ! فقالت المعجوز : ذلك علينا يسير . فإن لها بستاناً خاصاً بها ، تذهب إليه كلَّ شهرٍ ، فتقيمُ فيه عشرةَ أيامٍ ، ثم تعودُ إلى قصرِها ، وقد جاء أو أن خروجها إليه ، وما عليك إلا أن تذهبَ مخفياً إلى البستان ، وتكمنَ فيه بحيث لا يراك أحد ، واحرص على أن تفهمَ إشاراتي وتطبقها ، ولا تغادرِ البستان حتى أشيرَ عليك بمغادرته ، فإنني سأحتالُ لآتي هي جمالك ، فربما أولعتَ به ، فتسمى هي إليك ، وسأخبرك وقت خروجها لتنتظرها في بستانها ، ثم أغلقَ الدكانَ وصحبَ عزيزاً إلى منزلها ، وودعتهما هي إلى دارها .

وأفضى تاجُ الملوك إلى الوزيرِ بكلِّ ما حصل ، وطلبَ إليه تدبير

الأمر، وأن يُشيرَ بما يرى، فقال : ليلبسَ كل منكما أفخرَ ما عنده، ولنخرجُ الآنَ إلى البستانِ، فلما كانوا يبابه أعطى الوزيرُ البستانيَّ مائةَ دينارٍ وقال : نحنُ غرباءُ، وقد برَّحَ بنا الجوعُ، فلو أحضرتَ لنا شيئاً نأكله، على أن يكونَ لكَ المالُ الذي أخذته، كانَ لكَ علينا فضلٌ عظيمٌ، ففرحَ البستانيُّ بما أخذ من الدنانيرِ وقال : أدخلوا هذا البستانَ وتزهَّوا فيه كما تريدون، ثم اجلسوا حيثُ يطيبُ لكم الجلوسُ، حتى أحضِرَ من السَّوقِ طعامكم، فدخلوه فإذا هو منضوؤُ الزهرِ، يتضوَّعُ بالنسيمِ الأريجِ، ويرُوقُ بالرواءِ البهيجِ؛ وجعلوا يطوفون فيه : تارةً فوقَ حواشيه، وأخرى في تماشيه، حتى استقرَّ بهم المطافُ تحتَ شجرةٍ ممدودةٍ الأغصانِ، ترشُقُ الشمسُ ظلَّها الوارفةَ، إلى أن جاءهم البستانيُّ بما أحضَره من طعامٍ وشرابٍ .

ولما انتهوا من طعامهم أخذوا يتحدثون؛ فقال الوزيرُ للبستانيِّ : ألكَ هذا البستانُ؟ فقال : إنه لبنتِ الملكِ السيدةِ دنيا، وإنى أعملُ فيه لقاءَ أجرٍ شهريٍّ، فقال : وكم تأخذُ من الأجرِ في الشهر؟ فقال : أجرِي دينارٌ واحدٌ، فناوله الوزيرُ ثلاثمائةَ دينارٍ وقال : أريدُ أن أفعلَ شيئاً قد يكونُ فيه صلاحٌ وخيرٌ، ففرحَ البستانيُّ بما أخذَ من المالِ وقال : أعملُ ما شئتُ، فقال : وسيكونُ ذلكَ غداً إن شاء اللهُ تعالى، واستأذنوه أن ينصَرِفوا إلى منزلهم .

وفي صَباحِ الغدِ كانوا في البستانِ ومعهم رَسَّامٌ ماهرٌ، فأمره

الوزيرُ أن يرسمَ على جدارِ قصرِ السيدةِ دُنيا ، المشيّدِ في ناحيةٍ من بستانِها صورةَ صيادٍ نصبَ شبكتهُ ، وعلقتُ بها حمامةً ؛ وبجانِبها صورةَ لتلك الحمامةِ والصيادُ يذبحُها ؛ وبجانِبِ الثانيةِ صورةُ صقْرِ هَوَى على ذَكَرِ حمامٍ فأنشَبَ فيه مَخالبه ، ثم غادروا البستانَ إلى منزلهم .

وكانتِ المعجوزُ قد عكفت في دارها ، وأرادتِ السيدةُ دُنيا أن تخرجَ إلى البستانِ كما دتِها ، وهي لا تخرجُ إلا في صحبةِ المعجوزِ ، فأرسلت إليها ، فجاءتها على عَجَلٍ ، فقالت لها : لقد عزمتُ على الإقامةِ في البستانِ الأيامَ المعلومَةَ ، وستكونين في صُحبتِي ، فقالت : أمرُ سيّدتي مُطاع ، وأستأذنك ساعةً ، أحضرُ فيها من بيتي حاجتي من الملابس ، فقالت : على أن تحضري في أقرب وقت .

وذهبتِ المعجوزُ إلى تاجِ الملوك ، وأخبرتهُ أن يذهبَ من فورِهِ إلى البستانِ ويحتبئَ فيه ، على أن يُنفذَ كل ما أشارت به عليه ، فلبسَ أحسنَ ما عنده من الثيابِ ، وأسرعَ إلى البستانِ ، فاستقبله البستانيُّ فرحاً وأذن له أن يدخله ، ويلبثَ فيه ما شاء ، وكان لا يعرفُ مجيئَ السيدةِ دُنيا إلى البستانِ هذا اليومَ ، وأغلقَ بابَ البستانِ ، وأخذَ يعالجُ بعضَ شئونِهِ فيه ، فأحسَّ حركةً نحو قصرِ السيدةِ دُنيا ، ولما تبيّنَها وجدَ السيدةَ دُنيا مقبلةً في خطو كالقطَا ، والمعجوزُ والجواري من حولها ، فأسرعَ إلى تاجِ الملوكِ وأعلمه قدومها ، ووصّاه أن يُحكِمَ اختفائه ، حتى يخرجَ من البستانِ دونَ أن تراه ، ثم أشارتِ المعجوزُ عليها أن تأمرَ الخدمَ والجواري

بالانصراف ، حتى تأخذ حريتها بعض الوقت في وحدثها ، فأمرتهن أن يرجعن إلى القصر حتى ترسل في طلبهن ، وجمعت تنقل في أرجائه كالطير الطليق ، وتاج الملوك في مكانه من البستان بحيث يراها ولا تراه ، حتى وقفت أمام الجدار الذي به الصورة المرسومة ، فعجبت أن وجدت ما رأيته في منامها ، وقالت : أنظري أيها العجوز إلى ذكر الحمام ، فإنه مقبل في سرعة واهتمام ، لتخليص الحمامة زوجها ، ولكن الصقر انقض عليه فأنشب فيه مخالبه ، وحال بينه وبين إقناذه الحمامة ؛ لقد كنت مخطئة في بغض الرجال ، ورميهم بعدم الوفاء ، والآن جاء الحق وزهق الباطل ، فإن الرجل منهم لا يقل عن المرأة ، وفاء ومروءة ، إن لم يفقها ، وكانت العجوز قد أشارت إلى تاج الملوك — ودنيا مشغولة بالصور والتأمل فيها — أن يغادر البستان ، ويسير الهوينى بجانب حائطه ، بحيث يمكنها من رؤيته .

ولما رآته السيدة دنيا ، لبثت شاخصة إليه في سهوم مدة ، والعجوز كأنها متشاغلة لا تفقه شيئاً ، ثم قالت للعجوز : أنظري إلى هذا الشاب الذي مارأيت في الجمال مثله ، فنظرت إليه وقالت : بلغت من العمر تسعين سنة ، وما رأيت فيها شاباً بلغ من الجمال ما بلغه ، ولعله ابن ملك من الملوك ، فأثار النعمة والملك عليه بادية — وأشارت إليه العجوز حينئذ أن يسرع إلى بيته — وكانت السيدة دنيا قد أغرمت به ، واستعر قلبها بحبه ، فجلست قائلة : وأين ذهب هذا الشاب ؟ فقالت العجوز : إني

معك ولا يعلم الغيب إلا الله ، وربما كان له حاجة في مدينتنا ، ثم قضاها
وسافر إلى حيث لا ندري ؛ فاحتدم في صدرها الهيامُ به ، وقالت : عليك
أن تحتالي ، وتركبي كل خطرٍ في سبيل إحضاره ، واجتماعي به وإلا قتلتك
أشنع قتل ، وهذه ألف دينار لك ، وعندى لك مثلها إذا جاء ؛ فقالت
المعجوز : لا داعي الآن إلى بقائك في البستان ، فارجمي إلى قصرِكَ ،
وخلّ سبيلي فأني بأذلة جهدي ونفسي في تحقيق رغبتك ، وعسى أن
يوفقني الله تعالى ؛ فقالت السيدة دنيا : وذلك خير ما نفعل .

وانفلتت المعجوزُ إلى تاج الملوك في منزله ، فسُرَّ لرؤيتها ، وانتظر
في لهفٍ ما تقول ، فحكّت له كل شيء وقالت : وسيكون اجتماعكما
غداً ، فقال : أطال الله عُمرَكَ ، ولا حُرِمنا سديدَ رأيك ؛ وناولها ألف
دينار ؛ ثم انصرفت إلى السيدة دنيا ، فبا رأتها حتى سألتها عن حبيبها ،
فقالت : اليومَ عرفتُ مكانه ، وغداً يكونُ حاضراً بين يديك ، فأتهجت
ومنحتها ألف دينار ، ثم أذنت لها في الانصراف ، فرجعت إلى منزلها ،
وكانت قرية العين بما غنمت من مال ، وبما فازت في المكر والمِحال .

ثم ذهبت في الصباح إلى تاج الملوك فألبسته ثياب فتاة ، وأمرته أن
يحكي المرأة في مشيها وحركاتها ، وألا يكلم في الطريق أحداً ولا يلتفت
إليه ، وقالت : ستتبعني إلى قصر السيدة دنيا ، فإذا ما ناديتُ عليك قائلة :
أمرعي يا جازية ، فأطع أمري ، وعدّ خمسة أبواب عن شمالك ، وأدخل
الباب السادس ، فإنك واجدُ الأميرة في انتظارك .

وسارت بتاج الملوك ، وهو في زى جارية ، حتى كانت بقصر الأميرة ، فاستوقفها كبيرُ الخدم قائلاً : ما شأنُ هذه الجارية التي معك ؟ فقالت المعجوزُ : هذه جاريةٌ تحذقُ الأشغال ، وقد سمعتُ الأميرةَ عنها ، وأرادت أن تشتريها ، فجنّتُ بها تنفيذاً لأمرها ، فقال : لا شأنَ لي بالجارية ولا بأحدٍ غيرها ؛ وإذا كان لابدٌ من دخولها فلا بُدَّ من تفتيشها ، فقالت المعجوزُ : مالى أراك اليومَ على غير ما عهدناه فيك من حكمةٍ وهدوءٍ - والتفتت إلى تاج الملوك قائلة : أسرعى يا جارية - ألا تعلمُ أن الأميرة تنورُ عليك غاضبةً ، إن علمت أنك تعترضُ سبيلها إلى حيث تريد ! وهل الأميرةُ تطمئنُ إلى أن تلمسَ بيدك جسمَ جارية ، قد تكونُ من المحظيات لديها ؟ ألا تعلمُ أني أحبُّك وأحرصُ على راحتك وحمايتك من كل مكروه ؟ وجمعت تشغله وترقيه ، حتى كان تاجُ الملوك في حجرة الأميرة ، ثم ذهبت المعجوزُ إليهما ، فأمرتها الأميرةُ أن تقفَ بالباب ، وتصرف ما عداها من الجوارى والخدم ، فصعدت بأمرها ، وغلقت الباب عليهما ؛ ولبثا معاً في حديثٍ وأنسٍ وسَمَرٍ ، في براءةٍ وعفةٍ ، مدة يومٍ وليلة ، والمعجوزُ تتولى وحدها الإشرافَ عليهما وقضاءَ شئونهما .

أما الوزيرُ وعزيزُ فإنه لما لم يحضر تاجُ الملوك إليهما ، ظنّاً أنه لن يخرج من القصرِ أبداً ، فرأيا أن يسافرا إلى أبيه الملك سليمان شاه ، ويخبراه بما انتهى إليه أمرُ ابنه ، ليكونَ الرأى بعد ذلك له ، فترحاً من مدينة الأميرة دنيا ، وركبا متنَ الريح لا يلويان على شيء ، حتى كانا بين

يدى الملك سليمان شاه ، ففرع لمقدمهما وحدهما ، وكاد الفرع يبدو حابثاً في استقباله لهما ، ولكن حبسه ثبات الملك ورزائته ، ومطاوله الحوادث والصبر عليها ، ولما أخذ أمثواهما بين يديه سألهما عن ابنه ، فقال الوزير : ما أسرعنا بالمجيء إلا من أجل إخبارك ، وأفضى إليه بكل ما فى نفسه ، إلى أن قال : ثم انقطعت عنا أخباره ، من يوم أن دخل قصر الأميرة دنيا ، إذ لم يهبط منه أبداً ، ولم نعرف سبيلا إلى أن نجد ريحته ؛ فقال الملك : فلتعبد الجيوش ، ولنذهب إلى ملك جزائر الكافور ، فإن كان أبني حياً أتينا به ، وإلا انتقمنا منه له ؛ فقال الوزير : ذلك ما يجب أن يكون ، ونرجو أن تكون العقبى خيراً .

ونادى الملك فى رعيته ، التى تدين له بالولاء والمحبة ، أن هبوا لنجدة ابن مليككم إن كنتم له غاضبين ، فكان هذا النداء صيحة دوت فى قلوب الشبان والرجال ، فنسلوا من كل حدب ، وانضموا إلى الجيش الرسمى القائم ، وساروا فياقل تسد الأفق ، حتى قاربوا مدينة الملك شهرمان ، والد الأميرة دنيا .

وفى تلك الأثناء كان تاج الملوك ودنيا فى جنة من وحدتهما وتساقيهما شراباً طهوراً من الولاء والمحبة ؛ وذات يوم قالت له : أنا الآن معروفة لديك ، فهل لك أن تعرفنى بك ؟ فقال : وأن أبين الغرض من قدومى ، فقالت : نعم ، وسأكون اليد العاملة فى تحقيق غرضك ، فقال : أنا تاج الملوك بن الملك سليمان شاه ، الذى بعث وزيره إلى أبيك ، ليخطبك

لي، فأيدت وخرجت عن رغبة أليك؛ وقص عليها تاريخه برُمته، فقالت: ولسكني رضىتُ الآن، فقال: فلا سافر إلى أبي ليرسل إلى أليك رسولاً يحدد الخطبة، فقالت: وسأرتقبُ الرسولَ حتى أسهلَ له برضائِ السبيل، وكانا قد سهرتا طويلاً، يتسامرانِ وبينانِ قصورَ الآمالِ السعيدة، في حياتهما الزوجيةِ المقبلة، ولم يَنَما إلا في الهزيع الأخير من الليل، فجاء النهارُ وهما غارقانِ في نومِهما.

وبينما كان الملكُ شهرمان جالساً على عرشه، ذُجِّيء صائح ومعه جواهرٌ قيمتها مائة ألف دينار، فأعجبه صنْعُها، وأرسلَ بها كبيرَ الخدم إلى ابنته لتأخذها جميعها، أو تختارَ منها ما يروقها؛ فلما وصل إلى مقصورتها وجدها مغلقة، والمجوزُ أمامَ بابها نائمة، فأيقظَ المجوز وأرادها على أن تفتحَ بابَ الحجرة، فخشيتُ أن يفتضحَ أمرُها وقالت: أنظرني حتى أحضرَ المفتاح، ثم أنفَستُ وخرجت من القصرِ هاربة. ولما لم تُعدْ بعد انتظار طويل، ساوَرَ الخادمُ ريباً، فعالجَ بابَ الحجرة حتى فتحه، فرأى الأميرةَ دنيا نائمة، وبجوارها شاب على فراشها، ولما أيقظها هبت من نومها فزعرة، فقالت له: يا كافور، من المروءة أن تكتمَ أصرى عن أبي، مادمتُ لم أجترحُ فيه خطيئة أو إثمًا، فقال: وهل بعد ذلك خطيئة؟ إني لا أستطيعُ إخفاءَ شيءٍ عن مَلِكِي ووليِّ نعمتي، ثم أقفلَ البابَ عليهما، وفرَّ مسرعاً إلى أبيها، فلما كان بين يديه قال: لعل ابنتي قد أعجبتُها الجواهرُ أو شيءٌ منها؟ فقال كافور:

فوجئت بما منّنى عن عرض الجواهر ، فقال : وما فجأك يا كافور ؟
فقال : رأيت عند سيدتى الأميرة شابا جميلا ، نائما بجوارها على سريرها ،
فلم أطق صبرا ، وأغلقت باب الحجرة عليهما ، وجئت من فوري إليك ،
فأمر الملك بإحضارهما ، ولما مثلا بين يديه ، وعرف صدق كافور في
خبره ، ثم أن يضرب تاج الملك بسيفه ، فحالت ابنته دون ضربه وقالت :
اقتلنى قبله ، وإلا فخل سبيله ، ولا تقتلوا الأبرياء بالظنة ، فأمر الملك أن
يحبسوها في حجرتهما ، ثم التفت إلى تاج الملك قائلا : من أنت حتى
تنتهك حرمة قصرى ، وتجتمع بابنتى ؟ فقال : تاج الملك : لا تريب
عليك إن تريئت فى أمرى ، وإن أنت أصبتنى بمكروه ، جلبت على نفسك
وشعبك الويل والشبور ، وخير لك أن تستمع لما أقول ، مبرئا نفسك
من نزغات الهوى ، مُحْكَمًا عقلك وحِكمَتك ، وليست الشدة فيما تملك
من سلطان وقوة ، وإنما الشدة أن تملك نفسك عند الغضب ، وأعظم
آثار العقل نفعًا ، إذا صرف صاحبه ، وقت خطبه وفزعه . فهذا الملك
وقال : قل ما بدا لك ، وكان وزراؤه جالسين ، فقال تاج الملك : أعلم
أننى ابن الملك سليمان شاه ، قدمت إلى مدينتك ، محتالا لزواجى من
ابنتك ، ولم أفسسها بسوء ، وقد وُفِّت إلى الاجتماع بها ، وقبولى زوجا
لها ، وحللت بذلك عقدة لم تستطع أنت حلها ، إذ رضيت الأميرة
بالزواج ، بعد أن كانت نافرة منه آيسة ، فإن نلتنى بعد ذلك بسوء
هلك وأضمت ملكك ، وهذا كل ما أستطيع قوله . فالتفت الملك

إلى وزرائه وقال : أليس من الحكمة أن نُلقيَ هذا الشاب في غيابة السجن حتى نتبينَ أمره ، ويثبت صدقه أو كذبه ؟ فقال كبيرهم : إن وجوده بحجرة الأميرة كفيلاً بقتله ، وإهدار دمه ، فهو انتهاكٌ لبית الملك وحُرْمته ، وقال أحد الوزراء : وكما ننظر في الأمر من أوله ، فلننظره من آخره ، ولتفكروا في عاقبة ما تفعلون ، وكيف يكون القتلُ جزاء شاب هدفه الزواج ، وهو أمرٌ مشروعٌ وليس بجريمة ، واحتال للاجتماع بالأميرة ولكنه كان أميناً نبيلاً ، فلم يمسه بسوء ، وغير وجهه حياتها ، فجعلها ترضى أن تكون زوجاً تؤدى في الحياة رسالتها ؟ والرأى عندي أن يودع في مكان مكرماً ، حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود في أمره . وقال وزير آخر : نحن أولو قوة ، وأولو بأسٍ شديد ، وقد مُسَّت كرامةُ الملك بتسليمه إلى مقصورة ابنته ، فأمر الملك أن يُلقى في السجن معذباً إلى أن يُفصلَ في أمره .

وما كاد الجنود يسحبونه إلى السجن حتى سمع الملكُ ووزراؤه من المدينة صياحاً وجلبة ، كأنَّ أمراً خطيراً وقع ، فبعثَ رُسُلَه يتبينون هَرَج المدينة وضجَّتْها ، فجاءوا إليه بنبأ عظيم ، وذلك أنهم رأوا جيوشاً كأنها قطعُ السحاب ، آتيةً بخيلها ورجلها وعددها إلى المدينة ، فارتاع الملكُ ، وخشى على ملكه أن ينهار بنيانه ، ولم يلبث غيرَ قليلٍ في اضطرابه وخشيته ، حتى جاءته حجابُهُ ، ومعه رسلُ الملك سليمان شاه ، وفيهم وزيرُهُ ، فألقى عليه تحيته ، فردّها بأحسن منها وقال : ما خطبُكم أيها

القادمون ؟ فقال الوزير : جاءك الملك سليمان شاه بقوة لا تبقى ولا تدر ،
ويبلغك أن ابنه تاج الملوك لديك ، فإن كان معافى سلماً أخذه ورجع ،
ولم يمسسك بضرٍ ولا أذى ، وإلا فقد حقّ عليك غضبه ، ولا منجاة
لك من يده ، وسيحلّ بكم الدمار ، وخراب الديار ، فقال الملك : اثبتوني
بالشاب الذي كان معنا الآن ، فلما حضر عرف وزير أبيه ، فسلم وحيّاه ،
ثم التفت الملك شهرمان إلى رسل الملك سليمان شاه وقال : هذا غلامكم ؟
فقالوا : نعم ، فأمر أن يذهب به حجّاباً إلى الحمام ، ويلبسه حلة فاخرة ،
فقال الغلام : ولي عند الملك حاجة ، فقال : لك ذلك . ولما جرى به من
الحمام في حلة ثمينة ، وانتظم في مجلسهم ، أخذ يحدث وزير أبيه بما كان
منه ، من يوم أن ضمه قصر الأميرة ، فقال الوزير : ونحن منذ أن غبت عنا
أسرعنا إلى أبيك وأخبرناه ، فجاء بجنديه ، وأوفدنا إلى الملك شهرمان
نسأله عنك ، وهو ينتظر عودتنا ، فقال الملك شهرمان : لازتم رسل
خير ، ومبعث سلام ، ثم استأذن جلساءه ، على أن يعود إليهم بعد قليل ،
وغادرهم إلى ابنته في حجرتها ، فألفاها قد أمسكت سيفاً في يدها ، لتعمده
في صدرها ، إذا هي علمت أن تاج الملوك نفذ فيه حكم الإعدام ، وذموعها
كأنها سحب منهمر ، فربت أبوها على كتفها وقال : لا بأس عليك ،
وقصّ قصة تاج الملوك وقدم أبيه ، وأعلن إليها أن أمر الزواج موكول
إليها ، فقالت : ولا يرغب عن الزواج بهذا الشاب إلا فتاة بها مس من
العتة والجنون ، فتى جميل ، وابن ملك . وعلى خلق كريم ، ولم يخنك في

عرضك مدة طويلة ، كنتُ فيها له ، أطوعَ من بنائه ، فقال أبوها : الآن
اطمأنت نفسي ، وهذا دمي ، وسأبرمُ وثيقةَ زواجك منه الليلة ، في
حضرة والده ، فقرحتُ ودعتُ لوالدها بالتوفيق والسداد .

وخرج إلى جلسائه يتהלأ وجهه بشراً ، فأمر أن ترسل الهدايا إلى
الملك سليمان شاه ، وأن يسبقه وزيره ورسله إليه ليخبروه أن ابنته في
قصر الملك شهرمان وكأنه أحدُ أبنائه ، وأنه قادمٌ يدعوك إليه ، ليبرم
زواج ابنتك من ابنته ، ففرحَ الملكُ سليمان شاه وقال : الحمد لله الذي لم
يفجمني في ولدي ، ويسر له أمره ، وأنال له مأربه ، ثم استقبلَ الملكُ شهرمان
بين عزفِ الموسيقى ، ونحمة الجيوش ، والهتاف بحياته ، وبعد أن جلس
معه قليلاً يتبادلان آيات المحبة والألفة ، هنأه شهرمان بسلامة ابنته ، وفوزه
بنيل بُغيته ، ودعاهُ إلى قصره ، ليكتبَ وثيقةَ زواج ابنته من ابنته .
وتقدمتهما موسيقى الجيش صادحة ، ودخلا المدينة ، بين الجوع
الحاشدة ، والفرحة المبهجة وزغردة النساء ، وخفقِ الأعلام والبنود ،
إذ كان الملك شهرمان ، أعلنَ قدوم الملك سليمان ، ليحضرَ زواج ابنته تاج
الملك ، من ابنته الأميرة دنيا .

وجاء القضاة والشهود ، فأبرموا عقدَ الزواج ، ودخلَ الأميرُ بالأميرة ،
وأقام الملك وابنته في القصر ثلاثة أيام .

وكان الشاب عزيز فيمن حضر ، فطلبه تاج الملك ، وأعطاه مائتي
ألف دينار ، وقال له : الآن وجبَ أن ترحلَ إلى أمك ، كي تقر عينها بك

وتسعد بجوارك ، ومنحه كل من الملوك مالاً جزيلاً ، وودّعه تاج الملوك وداعاً كريماً .

ولما دخل على أمه ، ألفاها ما كفت على قبر بمنزليها ، أقامته يديها ، ليكون مبكى لها ، كلما ذكرت ابنها ، فلما رأته خرت لله ساجدة خاشعة ، وقامت إليه حاضنة مقبلة ، ثم جلست وإياه فرحة مسرورة ، فحدثها بما جرى له ، ووضع بين يديها المال الذي معه ، فزادها فرحاً ومسرّة ، وعاش معها في رخاء وسعة ، حتى وافاها القدر المحتوم .

أما الملك سليمان شاه فقد رجع بجيشه وابنه وزوجه إلى مدينته ، وهناك أقام الولائم ، وحفلات الابتهاج ، بزواج ابنه شهراً كاملاً ، واعتدل الزمان بهذا الزواج ؛ ونقض عليهم نوره وسروره ؛ وسلامه وصفاءه ؛ وكان تاج الملوك في ذلك كله مثلاً صادقاً في الجهاد ، واحتمال المسكاره ؛ وأسوة حسنة في كبح جماح الهوى ، والاعتصام بالخلق القويم فجزاه الله بما جاهد وسعى ؛ في إخلاص ونزاهة ؛ فوزاً عظيماً ؛ وعزاً مقبلاً .



علاء الدين ابوالشّامات

كان بمصرَ في الزّمنِ الأوّلِ رجلٌ يسمّى شمسَ الدين ، وهو رئيسُ
الشّجار ، عُرفَ بالصدق والأمانة ، فلا يُفْس ، ولا يطمع ، يعيش في نعمةٍ
من ماله الوفير ، وعِزّةٍ من جاهه العريض ، وكثرةٍ من الجوارى والماليك ،
وقضى أربعين خريفاً مع زوجته العقيم التي لم تلد ، وجلس إليه أحدُ
أصحابه في دُكانه فقال : أرايت هؤلاء التجار ؟ كل تاجرٍ منهم له ولد ،
ومسيخلفه في تجارتِه بعدَ موته ، فيستمرّ بيته عامراً ، وذِكْرُه سائراً ،
أمّا أنت فلم تُرزق بولد ، وإذا جاءك الموتُ انطفأ مصباحُ حياتك ،
وأقفلَ بيتك ، ونسيَ ذكْرُك ، ولا أدرى سبباً لِرِضاكَ بهذه الحالة ،
وأنت رئيسُ التجار وأغنام ، وتستطيع أن تتزوجَ ثانية وثالثة ورابعة ،
مادامت زوجُك الأوّل عقيماً ، فأمسك شمسُ الدين لحيته بيده وقال :

نصيحة متأخرة ، وسأنظرُ فيها ، وأرجو أن يهبَ الله لي غلامًا ذكيًا .

فكر شمس الدين في كلام صاحبه بعد أن فارقه ، فأدرك أنه قصر في حق نفسه ، وذهب آخرَ النهار مغموماً إلى بيته ، فاستقبلته زوجته كعادتها ، ولكنه كان زعلاناً متأثراً ، فلم يكن مسروراً بلقائها ، وامتنع أن يتناولَ طعامَ العشاء ، فاهتمَّت زوجته لحالته وسألته عما أغضبه وأحزنه فقال : أنت سببُ حُزني وألمي ، فقد حلقتني ليلة الدُّخولِ بك ، أنى لا أتزوجَ غيركِ ، ولا أنسرِّي بجارية ، وقد ظهر لي بعد هذه المدة الطويلة أنك عقيم ، فحزمتني ولدًا يرثني ، ويُبقي ذِكْرى ، ويكون امتدادًا لحياتي ، فقالت : ولم لا يكون المقيمُ فيكِ ؟ كان عليك أن تتناولَ الدواءَ المسمى « معكر البيض » مثلَ غيركِ من الأزواج قبل أن تهمني بالعقم ، فإذا تناولته ولم أحبلْ منك كان العقمُ عندي ، فقال : وأين أجِدُ هذا الدواء ؟ فقالت : عندَ العطارين .

وفي الصباح ذهبَ شمسُ الدين إلى عطارٍ وطلب منه « معكر البيض » فضحك العطارُ في نفسه وقال : كان عندي ونفد ، فذهب إلى بقية العطارين وسألهم ، فكان جوابهم مثل جواب العطار الأول ، فحس في دكانه حزينًا ، ولم يلبث غيرَ قليل حتى مرَّ به نقيبُ الدالّين حسبَ عادته ، فوجده مُطرقًا متغيرَ الحال ، فسأله عما يؤلمه ، فحكى له ما جرى بينه وبين صاحبه ، وبينه وبين زوجته ، وكان هذا النقيبُ من الظرفاء ويسمى « محمد سمس » ، فابتسم وقال : أفرح يا رئيسَ التجار ، فقد جاءك

الفرجُ ، وأنا الذى أحضر لك هذا الدواء ، ولا يأتى مغربُ هذا اليوم حتى يكون الدواء بين يديك . ثم مضى نقيب الدلائن ، فصنَعَ مخلوطاً من القرَنفل والزنجبيل والقرفة وعسل النخل وغيرها ، وأحضره إليه وقال : ذلك هو الدواء ، فخذْ منه مقدار نصف ملعقةٍ صغيرةٍ كل يوم ، وأكثرِ من أكل لحم الضأنِ والحمام ، فشكره ونفَذَ قوله .

ولما جاء موعدُ الحيض ولم تحضْ زوجته علم أنها حملتْ ، وقوى هذا العلمُ ظهورُ آثار الحمل بعدَ أربعة أشهر ، وعمَّ الفرحُ البيتَ باستقبال المولود السعيد ، ولما كان جميلَ الشكل ، له شاماتٌ على خديه ، سمّاه أبوه علاء الدين أبا الشامات ، وحتى لا يحسُده أحدٌ جعلَ له فى البيت ناحيةً خاصة لا يدخلها غريب . ولما بلغ من العمر سبع سنين وكأه إلى عبْدٍ وجارية يقومان بخدمته ، وإلى فقيه يحفظه القرآن ، ويعلمه الكتابة والعلم وذات يوم نسيَ العبدُ البابَ مفتوحاً ، فخرج علاء الدين ودخلَ على أمّه فى مكانها ، وكان معها جمعٌ من نساء الأعيان والكبراء ، فلما رأيته غبطينَ وجوههنَّ وقلنَ لأمّه : كيف يدخلُ علينا فى بيتك شابٌ أجنبى ؟ فقالت . إنه أبى وابن شمس الدين رئيس التجار وزوجى ، فقلن : ما علمنا لك ابنًا قبلَ اليوم ، فقالت : خاف أبوه عليه من الحسد ، فأفردَ له ناحية من بيته ، ويظهرُ لى أن العبدَ تركَ البابَ مفتوحاً فخرجَ منه وجاء إلينا ، فهتأنا به ، ورَجَوْنَه كل خير

وجعل علاء الدين يتنقلُ فى بيت أبيه وحديثه ، ويسأل عن كل

شيء يقع عليه بصره ، وجاء يوم سأل فيه أمه عن صنعة أبيه ، فقالت : أبوك تاجر ، ورئيس تجار مصر جميعهم ، فقال : ولماذا حبستموني في البيت ؟ فقالت : ما حبسك إلا مخافتنا عليك من أعين الحساد ، فقال : وهل من القضاء مفر ، فقالت : والحذر لا يمنع قداراً ، ولكن ذلك لا يمنع من استمسالك المرء بالحكمة والحزم ، فقال : وإذا مات أبي وقلت إني ابنه فإنه لا يصدقني أحد ، وحينئذ تذهب أملاك أبي وأمواله إلى بيت المال ، ومن الواجب أن أخرج إلى السوق مع أبي ، وأشتغل بالتجارة مثله ، وإذا ذلك أعرف بين الناس أنني علاء الدين بن شمس الدين ، فقالت أمه سأبلغ أباك ما قلته ، وأرجو أن يستجيب لرغبتك .

وحضر أبوه وأطلعته زوجته على كل شيء يرغب فيه علاء الدين ، ففرح بما سمع ، لأنه عرف أن ابنه يحب أن يكون حياً طاملاً ، فأخضره بين يديه وقال . سأخذك معي إلى السوق غداً ، فالتزم الكمال والأدب ، في قولك وعملك ، ولا تجعل للكبر سبيلاً إلى قلبك ، فلن تجد متكبراً يحبه أحد ، ولا يفتح قلوب الناس لك إلا تواضعك واختراعتك لهم ، فقال : لك الأمر وعلى السمع والطاعة .

ركب علاء الدين خلف أبيه على بغلته إلى السوق ، وكان جميل الطلعة ، ويزيده جمالاً حسن ملبسه ، وجلس يحوار أبيه في دكانه ، فظن التجار الظنون بشمس الدين ، وجعلوا عن هذا الغلام يتساءلون ، وأخذوا يهتمون شمس الدين في دينه وخلقه ، واتفقوا على ألا يذهبوا إليه كمادتهم لتحبيته

والدعاء له ، وأن يعزّلوه عن رئاستهم ، ويجعلوها في تاجر آخر ذي دينٍ وخلق .

ومرّ به تقيّب الدالين ، فسأله شمس الدين : ماذا حصل ومنع التجار عن الحضور إلينا كمادتهم للتحيّة والدعاء ؟ فقال : لا أخفي عليك شيئاً ، فقد أساءوا بك الظن ، حيناً رأوا معك هذا الغلام الجميل ، وعزّموا على أن يعزّلوك ، ويؤلّوا غيرك ، فقال شمس الدين : هذا الغلام ابني ، ولك أنت الفضل في محبته ، فأنت الذي صنعت لي الدواء الذي كان سبباً في أن وهب الله لي هذا الغلام ، وقد أخفيت أمره ، وحبسته في بيتي خوفاً عليه من أعين الحساد ، ولما رغب هو في الخروج معي إلى السوق أحضرته لأعرفه الناس ، وأعلمه التجارة ، حتى يمكنه أن يضطلع بأعباء الحياة من بعدى ، وقد سمّيته علاء الدين أبا الشامات .

ذهب تقيّب الدالين إلى التجار ، وأعلمهم حقيقة الأمر ، فجاءوا إلى شمس الدين أفواجا يهنئونه ، ويملئون ابتهاجهم بولده علاء الدين . وطلبوا إليه أن يقيم وليمة تليق بمقامه ، شكر الله ، وسروراً بهذا الغلام السعيد ، فقال : لكم ذلك ، ولتكن يوم الخميس المقبل في بيتي .

وأعدّ شمس الدين للمدعوين مالدّ وطاب ، من أنواع الطعام والشراب ، وأعدّ مكاناً للشبان ، يستقبلهم فيه ابنه علاء الدين ، ومكاناً آخر للشيوخ يستقبلهم هو فيه ، واجتمع المدعوون في اليوم الموعد ، فأكادوا وشربوا ، ثم جلسوا يتحدثون ، كل صاحب إلى صاحبه ، في

شئون مختلفة ، وكان من بين التجار محمود البلخي وكان يُظهرُ الإسلامَ والاستِمساكَ به ، ولكنه في حقيقة الأمر مجوسيّ ، يُخفي على الناس دينَ المجوسية الذي يمتنّقه ، وما كان أحدٌ يعرفه إلا بأنه مُسلم ، فانهز هذا فرصة غياب علاء الدين عن الشبان في قضاء حاجة ، وذهب إليهم فقال من استطاع أن يجعل علاء الدين يُسافر في تجارة ، أعطيته مكافأة قيمة ، ثم رجع إلى مجلس الشيوخ .

ولما عاد علاء الدين إلى الشبان أجلسوه بينهم ، وأخذوا يتحادثون ، فقال واحدٌ منهم لصاحبه : من أين جعت رأس مالك يا حسن ؟ فقال : كان معي ألف دينار ، ورثتها عن والدي ، فاشتريتُ بها بضاعة ، وسافرتُ بها إلى الشام فربحتُ فيها ألف دينار ، ثم اشتريتُ بها بضاعة من الشام ، ورحلتُ بها إلى بغداد ، فكسبتُ ألفي دينار ، وهكذا أخذتُ أشتري وأسافر وأبيع وأربح ، حتى بلغَ رأسُ مالي عشرة آلاف دينار ، ولما سئل الثاني قال مثل قوله وهكذا حتى لم يبق إلا علاء الدين فقيل له : وأنت يا سيدي ؟ فقال : ليس لي حاجة في السفر ، فقال أحدهم : إنك مثل السمك إن فارق الماء مات ، إن السفر بابُ الرزق الواسع ، والتعارف النافع ، والعلم الساطع ، وهو نخرُ التجار ، وتبصرة لأولى الأبصار .

فارق علاء الدين الشبان ، بعد أن أشعلوا حبَّ السفر في صدره ، وذهب إلى أمه فنقل إليها حديث الشبان ، وأنه من أجله مُصرٌّ على السفر إلى بغداد ، لما يتوقَّع فيها من ربح عظيم ، فقالت أمه : إنني راضية بالسفر

ولكَ من مَالِي عشرةَ أَحمَالٍ من القماش ، وسأمرُ الغلمانَ أن يبدؤوا في إعدادها من الآن ، ولكن لا تسافرِ حتى يحضُرَ أبوك وتستأذِنه ، وسيبعتُ معكَ إن أذنَ أصنافاً من البضائع ، يقبلُ على شرائها الزبائنُ والتجارُ من كلِّ ناحيةٍ ، وستجدُ فيها ربحاً وفيراً .

ولما عرضَ أمرُ السفرِ على أبيه قال له : الغربةُ مُرَّةٌ يا بُنَيَّ ، وقد قيل : من سعادةِ المرء أن يُرزقَ في بلده ، فقال علاء الدين : السفرُ من أماراتِ الرجولة ، والثقةِ بالنفس ، والإيمانِ بخالقِ الجنِّ والإنس ، وقد منَّ الله على قريشٍ برحلتين ؛ رحلةِ الشتاء ، ورحلةِ الصيف ، ولولا أن للرحلةِ خيراً ملموساً ما كانت من النعم التي يمنُّ الله بها على عباده ، فقال أبوه : رماك الله في سفرك ، وأزجعتك سالماً إلى بلدك ، ثم أمرَ غلمانه أن يعطوه أربعين حملاً كانت مُجهزةً ، فمن الواحدِ منها ألفُ دينار ، وناولهُ من الدنانير ألفاً وقال له : إن وجدتَ البضائعَ رابحةً فبِعها ، وإن رأيتَ سوقها كاسدةً فأنفقْ على نفْسِكَ من هذا الألفِ حتَّى ترتفعَ الأسعارُ ، وتستقيمَ الأحوالُ ، واحذر في طريقك فابَةَ الأسدِ ووادي الكلاب ، وقطاعِ الطُّرُق ، وعجلانِ وجماعته .

وكان رجلٌ يُقالُ له كمال الدين العكَّام مسافراً إلى بغداد إذ ذاك ، فوصَّاه بابنه علاء الدين ، ووصى ابنه أن يُطيعه ولا يعصى له أمراً ، أما محمود البُلخِي فقد كان مديناً لشمس الدين بألفِ دينار ، وقد جعل سفره إلى بغداد وقت سفرهما ، فوصَّاه شمس الدين بابنه ، وأمره أن يعطيه

الألف دينار التي عليه ، وكان له أربعة منازل : في مصر ، وفي الشام ، وفي حلب ، وفي بغداد ، ولما وصلوا إلى الشام أرسل محمود البلخي إلى علاء الدين ليضيفه في منزله ، فاستشار العكّام فنّمه أن يذهب إليه ، وكذلك لم يرض العكّام أن يذهب علاء الدين إلى البلخي في حلب ، حينما طلب إليه أن يضيفه في بيته بحلب .

وفي طريقهم بين بغداد وحلب دعاه البلخي إلى وليمة ، فاستشار العكّام فنّمه أيضاً ، ولكن علاء الدين خالف العكّام هذه المرة .

وذهب إليه ، فالبست ، غير قليل حتى نفر من البلخي ، وخرج من مجلسه غاضباً ، لأنّه عرفه رجلاً مجوسياً ، ولكنه يخدع الناس ويظهر إسلامه ، وطلب إلى العكّام أن يعجل بالازمّحال من هذا المكان ، تاركا المجوسي محمودا البلخي ، وكان العكّام يكره انقسام القافلة حتى لا تكون ضعيفة أمام عدوّ أو قاطع طريق ، ولكنه رضّى بالفرقة والرحيل ، تنفيذاً لإصرار علاء الدين

واستأنف المسير هو وعلاء الدين وعلمائهم ، ومعهم دوابهم وأموالهم ، حتى وصلوا وادياً ، فتشبّث علاء الدين بالمبيت فيه على كُرّه من العكّام ، الذي كان من رأيه أن يواصلوا السير ، حتى لا يتعرضوا لمخاوف الطريق .

ولما جاء الليل هجم عليهم عجلان وجماعته ، وجعلوا يقتلونهم واحداً واحداً ، حتى لم يبق إلا علاء الدين ، فاحتال هو لينجو بنفسه ، وخرج

من حُلَّتِهِ ، وتَقَلَّبَ بِقَمِيصِهِ فِي دِمَاءِ الْقَتْلِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ مَلْطَخًا
بِدِمَائِهِمْ ، كَأَنَّهُ قَتِيلٌ مِنْهُمْ ، ثُمَّ أَمَرَ عَجْلَانُ جَمَاعَتَهُ أَنْ يَمْزُوا بِالْقَتْلِ ،
وَيَسْتَوِثِقُوا بِسُيُوفِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ مَاتُوا ، وَكَانَ عَجْلَانُ هُوَ نَفْسُهُ يَسْتَوِثِقُ
بَسِيفِهِ مِنْهُمْ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى عِلَاءِ الدِّينِ ، وَرَفَعَ سَيْفَهُ لِيَضْرِبَ بِهِ ، لَدَغَتْهُ
عَقْرَبٌ فِي رِجْلِهِ ، فَصَرَخَ وَشُغِلَ بِنَفْسِهِ ، هُوَ وَجَمَاعَتُهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا
فِي نَجَاتِ عِلَاءِ الدِّينِ مِنَ الْقَتْلِ ، ثُمَّ حَمَلُوا الْأَمْوَالَ عَلَى دَوَابِّهِمْ ، وَفَرُّوا بِهَا
غَائِبِينَ فَرَحِينَ .

وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ مُحَمَّدُ الْبَلْخِيُّ الْمَجُوسِيُّ قَدْ وَصَلَ إِلَى هَذَا الْوَادِي
فَوَجَدَ الْقَتْلَ وَدِمَاءَهُمْ ، وَوَجَدَ عِلَاءَ الدِّينِ ، لَا يَزَالُ حَيًّا ، وَقَصَّ عَلَى الْبَلْخِيِّ
مَا أَصَابَهُمْ ، فَأَظْهَرَ لَهُ أَلَمًا وَحُزْنَ كَاعْظِمِينَ ، وَأَشْفَقَ عَلَى عِلَاءِ الدِّينِ ،
فَأَلْبَسَهُ حُلَّةً جَدِيدَةً مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَرْكَبَهُ بِغَلَّةً ، وَسَارَ بِهِ إِلَى بَيْتِهِ فِي بَغْدَادَ
وَهُنَاكَ أَدْخَلَهُ الْحَمَامَ وَأَكْرَمَهُ ، وَلَكِنْ عِلَاءُ الدِّينِ لَمْ يُطِقْ مَجُوسِيَّتَهُ ،
فَتَرَكُهُ فِي بَيْتِهِ ، وَخَرَجَ لَا يَذَرِي أَيْنَ يَذْهَبُ ، حَتَّى وَجَدَ فِي طَرِيقِهِ مَسْجِدًا
فَدَخَلَ فِيهِ ، لِيَتَّخِذَهُ مَقَامًا وَمَأْوَى ، إِلَى أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ لَهُ بَابَ الْفَرَجِ .

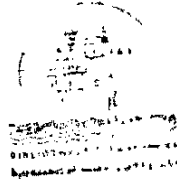
وَبَعْدَ بُرْهَةٍ رَأَى فَاوُوسِيَّ فِي يَدَيَّ عَبْدَيْنِ أَمَامَ تَاجَرَيْنِ ، وَهُمَا
مُقْبِلُونَ عَلَيْهِ ، وَسَمِعَ أَحَدَ التَّاجَرَيْنِ يَقُولُ الْآخَرَ : أَمَا نَصَحْتُكَ يَا أَبْنَ أَخِي
أَنْ تَسْتَقِيمَ وَتَتْرِكَ الْحُمُقَ وَكَثْرَةَ الْحَلْفِ بِالطَّلَاقِ ؟

قَالَ عِلَاءُ الدِّينِ : ثُمَّ التَفَتَ فَرَأَى جَالِسًا جِلْسَةً انْكِسَارٍ وَحُزْنٍ وَمَذَلَّةٍ ،
فَسَأَلَنِي : مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الْغَلَامُ ؟ فَحَكَيْتُ لَهُ قِصَّتِي مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا إِلَى

أَنْ قُلْتُ : وَلَمْ أَجِدْ إِلَّا هَذَا الْمَسْجِدَ فَاغْتَصِمْتُ بِهِ ، وَأَوَيْتُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لِي :
 أَرَأَيْتَ لَوْ أُعْطِيتُكَ أَلْفَ دِينَارٍ وَحُلَّةً جَدِيدَةً ، فَهَلْ تَقْبَلُ مِنِّي ؟ فَقُلْتُ :
 وَلَئِي سَبَبَ يَكُونُ مِنْكَ هَذَا لِي ؟ فَقَالَ : هَذَا ابْنُ أَخِي ، زَوْجَتُهُ ابْنَتِي
 زَيْدَةُ ، وَهُوَ يَحِبُّهَا وَلَسْكَنْهَا تُبْغِضُهُ ، وَحَدَّثَ أَنَّ طَلَّقَهَا ثَلَاثًا ، فَاتَّخَذَتْ
 بَنَتِي مِنْ ذَلِكَ الطَّلَاقَ وَسِيلَةً لِمُتَحَالَةِ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَلَسْكَنِّي أَعْطَفَ
 عَلَى ابْنِ أَخِي ، وَأَحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى عِشْرَتِهِ ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا تَزَوَّجْتَ
 غَيْرَهُ ثُمَّ طَلَّقَهَا ، وَقَدْ اتَّفَقْتُ أَنَا وَابْنُ أَخِي عَلَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الزَّوْاجُ
 مِنْ رَجُلٍ غَرِيبٍ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ وَجَدْنَاكَ ، وَرَضِينَا بِكَ لِعُرْبَتِكَ ، وَشَرَفَ
 مُنْبَتِكَ ، وَكَرَّمِ أَصْلِكَ ، فَتَعَالَ مَعَنَا وَبَيْتَ مَمَّا هَذِهِ اللَّيْلَةَ بَعْدَ أَنْ نُبْرِمَ
 عَقْدَ زَوَاجِهَا ؛ قَالَ عَلَاءُ الدِّينِ : فَلَمْ أَجِدْ مَفَرًّا مِنْ أَنْ أَرْضَى ، حَتَّى أَتَقَدَّ
 نَفْسِي مِنَ الضَّيْقِ الَّذِي نَزَلَ بِي .

وَذَهَبُوا إِلَى الْقَاضِي ، فَأُبْرِمُوا عِنْدَهُ عَقْدَ الزَّوْاجِ ، وَجَعَلُوا مُقَدِّمَ
 الصَّدَاقِ عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ ، فَإِذَا مَا جَاءَ الصَّبَاحُ وَطَلَّقَهَا أَعْطَوْهُ
 مَكَافَأَتَهُ ، وَإِنْ أَبَى أَنْ يُطَلِّقَهَا طَالِبُوهُ أَنْ يَدْفَعَ مُقَدِّمَ صَدَاقِهَا ، وَمُقَدَّارُهُ
 عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ .

وَكَانَ ابْنُ عَمِّ زَيْدَةَ وَمُطَلَّقَتِهَا لَهُ جَارِيَةٌ يُحْسِنُ إِلَيْهَا ، وَتَشْمُرُ بِمُطْفِئِ
 عَلَيْهَا ، وَهِيَ كَثِيرَةُ التَّرَدُّدِ إِلَى زَوْجَتِهِ الْمُطَلَّاقَةِ زَيْدَةَ ، وَكَانَ عَلَاءُ الدِّينِ مِنْ
 الْجَمَالِ وَالْحَسَنِ بِحَيْثُ لَا يَرَاهُ إِنْسَانٌ إِلَّا أَحَبَّهُ ، فَخَافَ أَنْ تُحِبَّهُ زَيْدَةُ ،
 وَلَا تَرْضَى بِفِرَاقِهِ ، فَوَصَّى جَارِيَتَهُ هَذِهِ أَنْ تَدْبُرَ حِيلَةً تَحُولُ بَيْنَ عَلَاءِ الدِّينِ



وزبيدة ، فقالت : لا تخف ، فلن يمسكها بيدك بل لن يراها بعينه ، ثم
أسرعت إلى علاء الدين وقالت له : جئتك ناصحة لله وكرسوله ، فقال :
نعم ، فقالت : هذه الفتاة مريضة بالجذام فلا تلمسها ، وإلا أصابك جذامها
وخسرت حياتك ، فقال : ما دمت صديقة في نصيحتك فليس لي برؤيتها
حاجة ، ثم فرّت إلى زبيدة مسرعة فقالت لها ما قالت له إلى علاء الدين ،
فاغتاضت وقالت : وهل أنا جاهلة فأصل بهذا المريض وأخسر جمالي
وشبابي ؟ إن ذلك ما لا يكون ، ولن أجعله يقترب مني ، وليت هذه
الليلة وحده ، وفي الصباح يمضي إلى سبيله .

وجمع الزوجين الحجرة المدة لها ، فآخذ كل منهما لنفسه فيها
مكاناً قصياً ، ثم بدأ علاء الدين يتلو سورة يس ، بصوتٍ لذيذٍ طربت
له زبيدة ، وخيل إليها أنها لم تسمع في حياتها صوتاً شبيهاً مثله ، فارتابت
في خبر الجارية وقالت : لا يمكن أن يكون لمريض الجذام مثل هذا
الصوت الجميل ، ولا بُدَّ أن تكون الجارية كاذبة ، لأمر ما كلفت
تنفيذه ، ثم مدت يدها إلى عودٍ فأصاحت أوتاره ، ثم غنت على إيقاعه
فكان كذلك وقَّعه الجميل في نفس علاء الدين ، وعجب أن تكون مريضة
بالجذام وتحسن الضرب على العود ، ويكون لها مثل هذا الصوت الجميل ،
فارتاب أيضاً في خبر الجارية ، ولكنه كان في حيرة من أمره ، أكثر
مما كانت زبيدة .

وغلب على زبيدة اعتقادها كذب الجارية ، فقامت إليه وأقربت

منه ، فقال : أبعدى عني حتى لا أصاب بجُذامِك ؛ فزاد يقينها بكذب الجارية ، وكشفت له عن جسمها فلم يجذ إلا نضارة وحُسناً ، فدّ يده إليها فقالت وهي ضاحكة : لا تلمس جسماً حتى لا أصاب بجُذامِك ، فكشف هو عن جسمه فبدا لها كأنه قطعة من جسمها جمالاً وحُسناً ، وضاعت حيلة الجارية ، فأعمر الزوج بينهما تلك الليلة .

وفي الصباح جلس إلى زبيدة قائلاً : سأستودعك الله بعد ساعة ، فقالت : أكان هذا زواجاً أم ضيافة ؟ فقال : أريد زواجاً ، ولكن أبالك يريده ضيافة ، فقالت : أفصح لي عما تريد ، فقال : شرطاً أبوك أن أعيش معك الليلة ، ثم أسرحك في الصباح ، فإن أبيت أزمني بدفع مقدّم الصداق ، ومقداره عشرة آلاف دينار ، ولا أملك منها ديناراً واحداً ، فقالت : إن كنت تريدني فأمنسكني عليك ، وإذا طلبوا منك الطلاق فقل : الشعرة الواحدة منها بألف دينار ، فإذا رفعوا أمرك إلى القاضي فإنك واجدٌ عنده حكم الشريعة الغراء ، الذي لن تجد فيه ظُلماً ولا هَضْماً ؛ ففعل علاء الدين ما أشارت به زوجته .

ولما سأله القاضي : لماذا لم تطلق زوجك ؟ قال : كيف أتزوج الليلة راضياً ، وأطلق في الصباح مُرغماً ؟ فقال القاضي : لا يقع الطلاق القهري وليس في مذهب المسلمين إكراه أحدٍ على أن يطلق زوجته ، فطلب أبوها أن يدفع مقدّم الصداق ، فقال علاء الدين : لا أملك الآن درهماً فأمهلونني ثلاثة أيام ، فقال القاضي : أمهلناك عشرة أيام .

ثم رجع علاء الدين إلى زوجته وأخبرها ما حصل ، فقالت : أصبر فإن الصبر من عَزَمِ الأمور ، والليالي يَلِدْنَ كلَّ عَجِيبٍ ؛ وبعد صلاة المشاء جلست تغنى وعودها في يدها يرددُ غناءها ، فسمعا طرُقا يباب دارها ، ولما فتح الباب علاء الدين ، وجدَ أربعة « دراوِيش » فقال لهم : ما حاجتكم ؟ فقالوا : نحن « دراوِيش » وغُرباء ، نحفظُ الموشحات والأشعار ، ونزغِبُ أن نكون ضيوفاً عندك الليلة ، لتُكرمنا بالمبيت والإيواء ، وسماع هذا الصوت الجميل ، فقال : أهْلُونِي حتى أعود إليكم ؛ وذهب فأخبر زُبيدة فقالت : قلبي يحدثني أن هؤلاء « الدراوِيش » باب خير لنا ونعمة ، إن نحن أكرمناهم وأويناهم ؛ فأحضرهم وأفسح صدرك لهم . ولما جلسوا عَرَضَ عليهم طعاماً فقالوا : ليس بنا حاجة إلى طعام ، ولكنَّا كُنَّا نَسْمَعُ مُغَنِّيةً فأين ذهبت ؟ فقال علاء الدين : إنها زوجتي ؛ وحكى قصته وقصتها ، ورأيتها في إكرامهم وإيوائهم ، فقال دروِيش منهم : لا تحزن ، وسأجمع لك مقدّم الصداق من « دراوِيشي » وأحضره إليك ، ولكننا نحبُّ الآن أن نسمع الغناء الذي هو لواحد كالغذاء ، ولاخر كالهواء ، ولنغيرهما كالمروحة ، ثم سهرُوا معظم الليلة في سماع الغناء حيناً ، ومُطارحة الحديث ورواية الأخبار حيناً ، وباتوا حتى الصباح ، ثم انصرفوا شاكرين .

كان هؤلاء « الدراوِيش » هارون الرشيد ، وجعفر البرمكي ، وأبا نؤاس ، ومسروور السياف ، وقد ساروا في المدينة على تلك الهيئة ،



لتعرّف أحوال الرعيّة ، حتى كانوا أمام دار زبيدة ، وسمعوا غناءها ، ونفّات عودها ، فرغبوا في دخولها ، ليعرفوا أحوال من فيها . وقبل انصرافهم وضع هارون الرشيد مائة دينار تحت السجادة التي كان يجلس عليها ، فلما رفعها زبيدة وجدتها ، فقالت لزوجها : لقد وضع « الدراويش » هذه الدنانير لنا على غير علم منا ، لننفقها في شئوننا ، إذ أنك شكوت لهم ما تقاسيه من ضيق في الرزق ، وذلك ما حدثتني به نفسي عند استئذانهم ، فإن عادوا مرة أخرى فرحب بهم ، فقد جعل الله رزقنا على أيديهم .

واستمر « الدراويش » يأتون كل ليلة ، ويتركون مائة دينار تحت السجادة ، تسع ليال متواليات ، ثم تخلفوا عن الحضور الليلة العاشرة ، فقال علاء الدين لزبيدة : أرايت كيف تخلف « الدراويش » ولم يعطوني مقدّم الصداق الذي وعدوني به ؟ وسيطلبه أبوك غدًا مني ، ولا أدري حينئذ ما أقول ، فإن استمرت بنا العشرة وجاءونا فإن أفتح لهم ، فقالت زبيدة : ما أسرع ابتئاسك وضجرك ! أنسيت لهؤلاء « الدراويش » فضالهم ؟ أليسوا هم سبب ما نحن فيه من الغنى والرخاء بما كانوا يتركونه كل ليلة من الدنانير ؟ فإذا عادوا فلا تطردهم ، فإن نفسي لا تزال تمحّذني أن خيرًا عظيمًا سينالنا على أيديهم ، أما مقدّم الصداق فأخلص إلى الله اعتمادك عليه فيه ؛ وإن ينصرم الله فلا غالب لكم .

وفي اليوم التاسع ، وهو صبيحة الليلة التاسعة ، أمر الخليفة هارون الرشيد أن يحضروا له خمسين جملًا من أقشمة مصرية ، بحيث يكون ثمن

كل حمل ألف دينار ، وعبدًا حبشيا ، ثم أمر أن يرسلَ هذا العبدُ وتلك
الأحمالُ إلى علاء الدين في صبيحةِ اليومِ العاشر ، ومعه الكتابُ الآتي :
مِن شمس الدين رئيسِ التجارِ بمصر — إلى ولده علاء الدين
أبي الشامات

السلامُ عليكم ورحمة الله

بَلَّغْنِي أَنْ قَطَاعَ الطَّرِيقِ نَهَبُوا أَمْوَالَكَ ، وَقَتَلُوا غِلْمَانَكَ ، فَأَرْسَلْتُ
إِلَيْكَ مَعَ عَبْدِ حَبَشَى خَمْسِينَ حِمْلًا مِنْ أَقَشَةِ مِصْرِيَّةٍ ، وَعَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ
لَتَدْفَعَ مُقَدِّمَ الصَّدَاقِ لَزَوْجِكَ ؛ وَجَمِيعُ أَهْلِكَ بِخَيْرٍ ، وَنَرْجُو لَكَ عَوْدَةَ
سَالِمَةً . . .
والدكم

شمس الدين

بمصر

وفي الصُّبْحِ الْبَاكِرِ مِنَ الْيَوْمِ الْعَاثِرِ طَرَقَ بَابَ دَارِ زَيْدَةَ طَارِقٌ
فَأَسْرَعَ علاء الدين إليه وفتحَه ، فَوَجَدَ وَالِدَ زَوْجَتِهِ وَابْنَ أَخِيهِ الَّذِي طَلَقَهَا ،
أَتِيَا إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ، لِيُطَاقَ زَيْدَةُ أَوْ يَدْفَعَ مُقَدِّمَ صَدَاقِهَا ،
أَوْ يَذْهَبَ مَعَهُمَا إِلَى الْقَاضِي لِيَفْصَلَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَوَجَدَ مَعَهُمَا بِالْبَابِ
عَبْدًا حَبَشِيًّا ، مَعَهُ خَمْسُونَ حِمْلًا ، فَنَاقَلَهُ الْكِتَابَ وَقَرَأَهُ ، فَعَرَفَ كُلَّ شَيْءٍ ،
وَكَانَ أَبُو زَيْدَةَ قَدْ سَأَلَ الْعَبْدَ ، وَعَرَفَ مِنْهُ أَنَّهُ عَبْدُ علاء الدين ، وَأَنَّ هَذِهِ
الْأَحْمَالُ أُرْسِلَتْهَا إِلَيْهِ وَالِدُهُ :

التفت علاء الدين إلى والد زبيدة ، ومد إليه يده قائلاً : خذْ مُقَدِّمَ
صداقِ ابنتِكَ ، وَخُذْ هَذِهِ الْأَحْمَالُ فَبِعْهَا فِي السُّوقِ وَلَكَ رِبْحُهَا ، أَمَا

رأس المال فاحفظه لى أمانةً عندك حتى تأتيني به ، فقال : لن آخذ شيئاً من الأحمال ، وأما المهرُ فارجع الفضل فيه إلى زوجك ، ولا تدخل لى بينكما ، فإمّا أخذته ، وإما أبرأت ذمتك منه ، ثم دخلوا الدار ونقلت الأحمالُ إلى مخزن فيها .

وطلب الزوج المطلق من أبى زبيدة أن يأمر علاء الدين بطلاقها ، فقال له : ليس من الحق ولا من الدين أن يرغم زوج على طلاق زوجته ، وإن أكرهه أحد وطلقها فإن الطلاق لا يقع ، فعلم أنها أفلتت من يده وخرج حزينا ، فاعتكف فى بيته ، ثم أصابه مرض ففضى عليه .

وأما علاء الدين وزبيدة فقد أمنا من مخاوف الطلاق ، وفرحا بالأموال التى جاءتهما من مصر وبينما هى تغنى كمادتها ، إذ طرق « الدراويش » الباب ، فلما لقيهم علاء الدين قال : مرحباً بمن أخلقوا موعدهم ، تفضلوا وخذو بحالكم ، ثم سألوهم عما فعل فى مسألة زوجه فقال : لن يضام عبد فى رعاية الله ، فقد أرسل لى والدى من مصر أموالا وأحمالا ، واصطلحت أنا وأبو زبيدة ، وشملنا الاطمئنان والحمد لله . وقام حينئذ هارون الرشيد إلى دورة المياه ، فانهز جعفر هذه الفرصة وقال لعلاء الدين : كم يوماً يقطعها المسافر من مصر إلى بغداد ؟ فقال : أربعون يوماً ، قال : وما عدد الأيام التى مضت على نهب أموالك ؟ فقال : فقال نحو من اثني عشر يوماً ، فقال : وهل تصدق أن خبر حادثك يصل إلى أهلك فى مصر ، ثم يرسل إليك هذه الأموال فى تلك المدة ؟ فقال لا أصدق ،

ولكن سلمني العبد الحبشي كتاباً من والدي ، فقال : أنت الآن في
 حضرة الخليفة هارون الرشيد ، وهو الذي ذهب إلى دورة المياه ، وأنا
 وزيره جعفر ، وهذا أبو نواس ، وذلك مسرور السيف ، والخليفة هو
 الذي بعث العبد والأموال والكتاب إليك ، فلما قدم الخليفة نهض إليه
 علاء الدين فقبل يديه ، ودعا له باليمن والسعادة ، فقال له : أنت رئيس
 التجار في بغداد ، بدلا من أبي زبيدة زوجك ، فإذا كان الغد فاذهب إلى
 الديوان واجلس في مكانه لتقوم بتصرف الأحوال ، فقال له سمعاً وطاعة
 وبعد أن سهروا ما شاءوا من لياتهم في غناء وطرب انصرفوا مشكورين
 وكان علاء الدين وزبيدة في بيتهم جالسين ، فقامت تقضى شأنها
 من مشئون بيتها ، فصرخت صرخة واحدة ، جعلت زوجها يذهب إليها
 مسرعا ، فوجدها جثة هامدة ، وكان بيت أبيها أمام بيتها فسمع تلك
 الصرخة ، وحضر على أثرها فعرف أن زبيدة ابنته ماتت فجأة ، ثم دفنت
 في حفل رائع .

وذهب الخليفة في حاشيته إلى بيت علاء الدين ليعزيه فوجده حزينا
 فقال له : المؤمن من صبر ، ورضى بالقدر ، ولك في الله خير العوض ،
 ولا مفر من الموت ، ثم قال له : يا علاء الدين . أنت ضيف الليلة القادمة
 ولما كان في حضرة الخليفة ، أمر أن تحضر جارية من جواريه تسمى
 قوت القلوب وتغني ، لتسلي علاء الدين وتخفف عنه أحزانه ، فلما انتهت
 من غنائها سأله عن صوتها فقال : صوت زبيدة أحسن واسكن هذه أمهر

منها في الصنعة ، فقال . هل أعجبتك ؟ فقال : نعم ، فقال : قد أهديتها
إليك ومعهما أربعون جارية من جواريتها ، ثم أمر أن تنقل هي وجواريتها
وأناسهن إلى بيت علاء الدين . فأجلمت هي بالباب حارسين من غلمانها
وقالت لهما : إذا جاء علاء الدين فقولاً له : إن سيدتي قوت القلوب
تدعوك إليها ، فلما قيل له ذلك قال : ما كان للمخدوم لا ينبغي أن يكون
للخادم ، ولن أقرب منها أبداً ، ولها عندي أن أتفق عليها كأنها في بيت
الخليفة . ولما علم بذلك هارون الرشيد ردها وجواريتها إلى قصره ، وأعطى
جعفراً عشرة آلاف دينار ، ليشتري بها من السوق جارية تُعجب
علاء الدين ، فأخذه إلى سوق الجوارى لشراء جارية له تنفيذاً لأمر الخليفة
وكان لمدينة بغداد وال من قبل الخليفة يدعى خالداً ، وله ولدٌ قبيحُ
المنظر يُسمى حبظلم بظاظة فذهب هو أيضاً إلى سوق الجوارى
ليشترى لابنه هذا جارية ، إذ أنه من القبح بحيث لا ترغب امرأةٌ قبيحة
أن تزوجه ، وكان ذلك في اليوم الذي ذهب فيه جعفرٌ لشراء جارية
إلى علاء الدين .

فرّ الدلال على جعفرٍ بجارية تسمى يامين ، فجعل ثمنها ألف دينار ،
ثم مرّ بها على خالدٍ والى بغداد فزاد هذا الثمن ديناراً واحداً ، ورجع
الدلالُ بها إلى جعفرٍ فجعله ألفين ، ثم زاد الوالى ديناراً واحداً وهكذا
كلما زاد الوالى ديناراً زاد جعفر ألفاً حتى بلغ ثمنها عشرة آلاف ، فدفعها
وسلمت إليه ، ولكن علاء الدين أعتقها في الحال وزوجها حرة ، حتى

لا تكون أسيرة البيع والشراء ، ولما علم ابنُ الوالى أن ياسمين بيعت وأعتقت وتزوجت رجع إلى البيت حزينا كثيرا ، فسألته أمه عما أحزنه ، فأخبرها ما جرى له فى سوق الجوارى مع علاء الدين ، ثم اشتدَّ به الحزن حتى ألزمه الفراش ، يقاسى آلام الضعف والمزال .

وذات يوم دخلت على أمه عجوز تدعى أم أحمد ققام . العرافة ، فوجدتها فى شدة الحزن ، فسألها عما أحزنها ، فحكّت لها حكاية ابنها ، فقالت العجوز : لو كان ابنى أحمد ققام السراق غير مقيّد فى السجن لأحضر لابنك الجارية ياسمين ، ولو كانت تحت طبقات الأرض ، فقالت أم حبظم : وما حكاية ابنك ؟ فقالت العجوز : أخذ يسرق ، ويسرق ، ويسرق حتى همّ الخليفة بقتله ، ليريح الناس منه ، ولكن الوزير شفّع فيه قائلا : السجن قبر للأحياء ، فأمر الخليفة أن يقيّد فيه حتى الممات ، فإن أنت جعلت زوجك الوالى يشفع له عند الوزير ، وهذا يشفع له عند الخليفة ، وأطلعه من قيده وسجنه ، وأرجعه إلى أمه وبيته ، أحضر لابنك ياسمين وأنت مستريحة ، فقالت : على إطلاق سراحه من سجنه ، وعليك أنت إحضار الجارية ، واتفقتا على ذلك .

وبلغت أم حبظم زوجها خالداً حديث العجوز وما اتفقتا عليه ، فذهب إلى الوزير ورجا منه أن يشفع فى إطلاق أحمد ققام من سجنه ، شفقة بالعجوز أمه ، ثم قال الوزير للخليفة : جاءتنى عجوز لو أطلعت على بؤسها وضعفها ، وحزنها وبكاها لأجبتها إلى ما تطلب ، مهما يكن شأنه

فقال الخليفة : وماذا تطلبُ ؟ فقال الوزير : لها ولدٌ يدعى أحمد قاتم ، حكمَ عليه أن يُقَيَّدَ في سِجْنِهِ حتَّى يماتَ ، وتقول : إذا كان قد تابَ وأنابَ فأزجُمُوهُ إلى أمه ، فقال الخليفة : هاتوه بين يديّ ، فلما حضرَ سألهُ الخليفة : هلْ ندمتَ على فِعْلِكَ ، ورجعتَ إلى ربِّك ؟ فقال : تبتُّ إلى الله ، ورجعتُ إلى الله ، وندمتُ على ما فعلتُ ، وعزمتُ على ألا أعودَ أبداً إلى ارتكابِ ما يَنْضِبُ ربي ، وأشهدُكم وأشهدُ الله على ما أقول ، فمفا عنه الخليفة ، وأمرَ أن يخلَى سبيله ، وفرح قاتمٌ بخروجه من سِجْنِهِ ، وعودته إلى الحياة الحرة ، كما فرحتُ أمه يا تقاذِ ابنها من العذاب ، ورجوعه إليها بعد الغياب وذات يوم قالت لابنها . إن والى بغداد هو الذي خلَّصك من السجن على شرط أن تقابلَ المعروف بالمعروف ، والإحسان بالإحسان ، فقال : سأردُّ الجليل أضعافاً مضاعفةً ، فرى بما تريدان ، فقالت . يُريدُ منك أن تقتلَ علاء الدين أبا الشامات ، وأن تأتيَ بزوجته باسمين إلى ابنه حُظلم بظاظة ، فقال . سأقوم بتنفيذ هذا فوراً .

وكان للخليفة حِجْرَةٌ خاصَّةٌ ، بها مصبَّاحٌ من ذهب ، حجَّله ثلاث جواهرَ غالية ، وكان يتركُ فيها حلتَه ، وخاتمَه ، ومسبَّحَتَه ، إذا غادرها إلى حِجْرَةِ نومه ، فاحتالَ أحمد قاتمٌ حتَّى صعدَ فوق سقْفِها ، وأزالَ غطاءَ فتحةٍ فيه ، وتدلىَّ منها على حبلٍ كان معه ، ثم سرقَ الحُلَّةَ والمصباحَ والخاتمَ والمسبَّحَةَ وعاد من حيثُ أتى ، وذهب بها إلى بيتِ علاء الدين ، ودقَّها في أرضِ حِجْرَةٍ من حجراته ، ولكنه أخذَ المصباحَ لنفسه . وفي الصباح

ذهب الخليفة إلى الحجرة فلم يجد الأشياء المسروقة ، فغضب وأحضر الوزير ، وحكى له ما حصل بحجرته الخاصة .

استدعى الوزير والى بغداد ، فحضر معه أحمد قائم — وكان قد جعله رئيس الخفراء بعد أن عفا عنه الخليفة — وسأله عن حالة الأمن في بغداد ، فقال : على أحسن حال ، فقال الوزير : كأنى بك كاذب أو جاهل أو غافل ؟؟؟ لقد سرق الليلة من حجرة الخليفة الخاصة المصباح والحلة ، والخاتم والمسبحة ، فأجاب أحمد قائم . ذلك مكان لا يجرؤ أحد أن يقرب منه أو يصل إليه ، وما كان السارق في رأي رجل بعيداً أو غريباً ، فدود الخلل منه فيه ، وأرى من الحزم تفتيش بيوت المقرئين من حاشية الخليفة ، وفيهم الوزير والوالى وعلاء الدين ، فقال الخليفة : قد أمرتك بتفتيش ما تشاء من البيوت ، وسيكون القتل جزاء من سرق ، وإن كان أحب الناس عندي .

فنش أحمد قائم قصر الخليفة ، وقصر وزيره جعفر والى ، والأمراء والحجّاب ، ثم ذهب إلى بيت علاء الدين أبى الشامات ، ومعه جماعة من ولاية وشهود ، ولما أخبروه بما جرى قال لهم : ولا بد من تفتيش بيتي ، فدخل قائم وجماعته البيت ، وقصد بهم إلى الحجرة التي دفن فيها ما سرق ونش المكان المعروف له ، وأخرج منه الحلة والخاتم والمسبحة ، وكتبوا شهادة بذلك ، وتم عليها جمعهم ، وقبضوا على علاء الدين ، وساقوه إلى الخليفة .

أما زوجته ياسمين — وكانت حاملا — فقد أرسلها قمام إلى أمه ،
وأمرها أن تذهب بها إلى خاتون زوج الوالى ، ليحظى بها ابنها حبّظلم .
وهنا يلحّ القارىء أمرين يشيران من طرف خفى إلى كذب
الجرّيمة المنسوبة إلى علاء الدين : أمّا أحدهما فغيبّة المصباح ، وأما الآخر
فإرسال ياسمين فى الحال إلى حبّظلم .

ولما دخلت العجوز أم قمام على زوجة خالد والى بغداد ومعهما
ياسمين ، فرحت فرحاً عظيماً ، ونهض ابنها حبّظلم من مكانه ، ولما اقترب
منها رفعت يدها بخنجر كان معها وقالت : ابعذ عني وإلا قتلتك ،
فقالت أم حبّظلم : كيف تتمنعين عن أبى ؟ لا بدّ من تعذيبك ؛ وأما
علاء الدين فلا بدّ من شنقه ، فقالت ياسمين : وإن أموت إلا على الوفاء
له ، ثم نزعّت أم حبّظلم عن ياسمين ما عليها من ملابس حريرية ، وألبستها
ملابس صوفية خشنة ، وأمرتها أن تقوم بالخدمة فى المطبخ وقالت :
هذا جزاؤك فأجابتها : كل شيء أرضى به إلا أن يقترب منى ولدك ،
فالموت أقرب إليه منى ، وقد ابتأسّت جوارى خالد من ظلم ياسمين ،
فمطّفن عليها وساعدنّها فى أعمالها خفية .

أما علاء الدين فقد جاءوا به إلى الخليفة ، ومعهم جميع ما سرق إلا
المصباح فقال : وأين المصباح يا علاء الدين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ،
ما سرقت ، ولا علم لى بشيء من ذلك أبداً . فقال الخليفة : يا خائن ،
أحسنّا إليك فأسأت ، واستأمتلك فخنّنت ، ثم أمر به أن يُشنق



وكان في بغداد إذ ذاك شيخ طريقة صوفية يدعى أحمد الدنف ، وله أتباع كثيرون ، وقد اتخذ علاء الدين أبنًا له في الله ، فذهب إليه « السقا » وقال له : أدرك بممر تلك علاء الدين ، فهو في طريقه إلى المشنقة ، فالتفت أحمد الدنف إلى حسن شومان ، وكان حاضرًا ، وهو من عمال الخليفة في السجن ، كأنه يسأله عن رأيه في علاء الدين فقال : إن علاء الدين مظلوم ، وما سرق إلا عدو له يريد أن يقتله ، وسيجعل الله نجاته على يدي ؛ ثم قام حسن شومان من فورِهِ إلى السجن ، وأمر أن يسلموا الرجلًا محكومًا عليه بالقتل عدلاً ، ومن حسن الحظ أن كان ذلك الرجل أشبه الرجال بعلاء الدين شكلاً ، فذهب به إلى جُندى الشنق ، وأفهمه أن علاء الدين مظلوم حقًا ، وهذا الرجل بدل منه ، وهو من المسجونين المحكوم عليهم بالقتل عدلاً ، فناوله علاء الدين ، ونفذ القتل في ذلك البدل الأثيم ، وأنسل حسن بعلاء الدين إلى أحمد الدنف ، فقال له : كيف تسرق أشياء الخليفة ، وقد أحسن إليك واتخذك أمينًا ؟ فقال : ورب الكعبة ما سرقت وما علمت ، فقال : ولكن أصبح من الواجب أن ترحل من بغداد فوراً ، فإن الماقل لا يسكن إلى معاداة السلطان ، فقال : وإلى أين أهرب من ذلك الظلم ؟ فقال : سأذهب بك إلى الإسكندرية ، وأقيم هناك حتى أطمئن على راحتك ثم أعود إلى بغداد .

ووصى أحمد الدنف أن يقولوا : إنه خرج يتوفى البلاد إذا ما سأل عنه الخليفة ، وسار هو وعلاء خارجين من بغداد حتى وصلوا إلى حقول

السكرم والحدائق والبساتين ، فلقيا هناك يهوديين راكبين بغلّتين ،
وأدرك أحدهما يريدان بهما شرًا ، فمَجَّل بقتلهما ، وأخذ ما معهما من
النقود ، وكان مقداره مائتي دينار ، ثم ركبَا البغلّتين وسارا حتى مدينة
إيَّاس ، وهناك أودعا البغلّتين في إسطبل وباتا فيها ، وفي الصباح باعا
البغلّتين ، وركبا من ميناء المدينة مركبًا إلى الإسكندرية ، وبينما هما ماشيان
في سوقها وجدّا دلالًا يعرضُ للبيع دكانًا ، من ورائه مكانٌ به مخزنٌ
واسع ، وقد بلغ ثمن جميعها تسعمائة وخمسين دينارًا ، فمَجَّل علاء الدين
الثنى ألف دينار ، فرضى صاحبها ، وباعها إليه وتسلمها .

وجدَ أحمد وعلاء الدين الدكان مفروشًا بالبُسُط والمساند ، ثم فتحوا
المخزن فوجدوا فيه قِلاعًا وسارياتٍ وحبالًا ، وصناديق وسكاكين ،
وكثيراً من عُدَدٍ وآلاتٍ لصناعاتٍ مختلفةٍ ، كالجزارة والحياكة والتجارة
وغيرها ، لأن صاحبه كان سقَطيًا ، يتجرُّ في الأشياء المستعملة ، رديئةً
كانت أو غير رديئة ، صالحة للاستعمال أو غير صالحة .

أقام أحمد مع علاء الدين ثلاثة أيام ، وأمره أن يرتزق من التجارة في
هذا السقَطِ الذي وجدّه بالمخزن ، واستأذنه أن يعودَ إلى بغداد ليبحث
عن عدوّه ، الذي دبر له مكيدةً اتهمه بالسرقة والحكم بقتله ، وينتقم له
منه ، ثم يأخذ له من الخليفة أمرَ الأمان ، ليستطيع العودة إلى بغداد .

ولما وصل أحمد إلى بغداد سأل حسن شومان : هل طلبني الخليفة
في أثناء غيبيتي ؟ فقال لا ، ولم يعلم عنك شيئاً هذه المدة ، ولكنه جلس

يتحدث إلى وزيره يوماً في شئون مختلفة إلى أن قال : أَرَأَيْتَ كَيْفَ قَابِلَ علاء الدين إحساننا إليه بالإساءة إلينا ، وَائْتِمَانَنَا لَهُ بِخِيَانَتِنَا ؟ فقال جعفر : وقد لقيَ الخائنُ جزاءه ، وكان مصيرُهُ القتلَ المِهينَ .

أما جبّظلمَ بظاظه ، ابنُ خالدٍ والى المدينة ، فاعتراه مرضٌ لم يمهله ، وماتَ دون أن يتمكن من غرضه ؛ وأما ياسمين فقد لبثت محافظةً على نفسها ووفائها لعلاء الدين زوجها ، فتّمت مدةً حملها ، ووضعت ذكراً رائع الجمال ، فسّمته وحيداً ، وكان شبيهاً بأبيه ، ومن بديع حكمة الله أن جعلَ له في نفسِ خالدٍ والى المدينة حُبّةً وعطفاً ، فتبنّاهُ وقال لأُمّه : إذا سألكِ أحدٌ عن أَيْبِهِ فقولى : أبوهُ خالد ، فقالت : سمعاً وطاعة ، مخافةً منه ، وطمّعا في أن يكفله ، ثم تولّاه بالتربية والتعليم ، والتدريب على فنون الضرب والطعن ، حتى حذقَ ذلك كله ، وأصبح فيه لا يُشَقُّ له غُبار .

ولما بلغَ عشرين سنة اجتمع بأحمد قسام واختلط به كأنه أحدُ أصحابه ، وذاتَ مرّةٍ جلسَ أحمدُ هذا وتناولَ كأساً من الخمر على ضوء مصباح الخليفة ، الذى كان قد سرّقه ، فأعجبَ المصباحُ وحيداً ، وطلب أن يُهديه إليه ، فقال : لن يكون ذلك ، هذا مصباحٌ قتلتُ به نفساً ، فقال له : وكيف ذلك ؟ فحكى له قصة السرقة ، وقتل علاء الدين فيها ، ففهم وحيدٌ من القصة أن ياسمين أمّه ، وأن علاء الدين والدّه ، وأن أحمد قسام هذا سببُ شنيعةٍ وقتله ظلماً وعدواناً .

ولما ذهبَ إلى أمِّه وسألها عن أبيه وقصِّته ، أحاطته علماً بكل ما حدثت وقالت : إذا قابلت أحمد الدنف ، فاسأله أن يني بوعده ، ويأخذ لك بثأر أبيك ، فلما طلبَ وحيدٌ منه ذلك سأله : ومن أبوك ؟ ومن الذي قتله ؟ فقال : أبي علاء الدين ، وقد قتله أحمد ققام ، فقال : ومن أعلمك هذا ؟ فقال : جَمَعَنِي أنا وأحمد ققام مجلسُ شراب ، فسكِر فيه على مصباح الخليفة ، ولما أعجبني هذا المصباح سألتُه أن يهديه لي ، فقال : لقد قتلت فيه نفساً ، ثم قصَّ عليَّ قصةَ أبي وقلته ، فقال : سأشيرُ عليك بما تفعله ليقْتُل الخليفة أحمد ققام وأنت مُستريح ، فقال : وما ذاك ؟ فقال : إذا خرج خالدُ والفرسانُ إلى الضرب والطعن في مجلسِ الخليفة ، فالبَسْ درْعَكَ ، وتقلَّدْ سيفَكَ ، واخرج معهم ، وحاولْ أن تُجيدَ الضرب والطعن وفنونَ القتال حتى تُعجبَ الخليفة ، ويدعوك إليه ليُكَافئك بإعطائك ما تريده ، فإذا سألك عما تريدُ فقلْ : أريدُ أن تقتلَ قاتِلَ أبي ، فإن قال : إنَّ أباك خالدٌ ، وهو لا يزال حيًّا لم يمت فقلْ : إنَّ أبي علاء الدين أبو الشامات ، وقصَّ عليه قصةَ المصباح واعترف أحمد ققام ، ثم اطلب أن يأمرَ بتفتيشه ، وأنا أخرجُ المصباحَ من جيبه ، وحينئذٍ يظهرُ الحق ، ويأمرُ بقتله .

خرج خالد ومعه الفرسانُ ووحيدٌ ، وجعلوا يلعبون ويعرضون على الخليفة ألواناً من الضرب والطعن والقتال ، وكان من بينهم جاسوس مَدْسوس ، لقتلِ الخليفة ، برميةٍ سَهم طائشة ، ولكنَّ وحيداً تلقى هذه

الرمية الموجهة إلى صدر الخليفة بترسه ، وعمد إلى راميها فأرسل إليه سهمًا نفذت في صدره ، فوق قتيلا ، فرح الخليفة ، وأعجب بوحيد وأحبّه ، وأحضره في الحال أمامه وقال : سل باوحيد ما شئت فإني مُعطيكَه ، فقال : أن تقتل قاتل أبي ، فقال الخليفة : إن أباك خالدٌ ، وهو لا يزال حيًّا لم يمت ! فقال وحيد : إن خالدًا هذا ربّاني بعد شنيق والذى علاء الدين ، وحكى له ما جرى بينه وبين أحمد قادم من حديث الصباح وطلب تفتيشه في الحال ، فأمر الخليفة بتفتيشه ، وفي الحال أخرج أحمد الدف من جيب أحمد قادم مضباح الخليفة ، فلم يسمع قادم إلا أن يعترف بالحقيقة ، فأمر بإلقائه في السجن مقيّدًا حتى يُصدّر فيه حكمه ، وأمر أن تُنقل ياسمين إلى بيت زوجها علاء الدين ، وأن يُردّ إليها جميع أملاك زوجها ؛ ثم قال لوحيد : وماذا تريد بعد ذلك ؟ فقال : أن تجمعني بأبي علاء الدين ، فقال : لقد شنيق أبوك ظلماً فيما نعلم ، ولكنّ القدر قد يكون حفظه من هذا المدّوان الصارخ ، فأجرى في أمره ما لا نعلم ، وقد جعلت لمن يبشّرني بأنه لا يزال حيًّا مكافأة سنّية ، وقضيت له جميع ما يطلب ، فتقدّم أحمد الدف وطلب الأمان من الخليفة ، فقال : أنت آمنٌ فقل ما شئت ، فقال : إن علاء الدين لا يزال حيًّا ، وقد فدّيته أنا بمن يستحقّ القتل من المسجونين ؛ أما هو فقد فرّرت به إلى مدينة الإسكندرية ، وفتحت له هناك دكان سقّطى يرتزق منه ، ولا يزال يعمل فيه إلى الآن ، فقال : عليك أن تجيء به إلينا ، وقد أمرت لك بعشرة

آلاف دينار، تنفق منها حتى تُخْضِرَه ، فقال : سمعًا وطاعة ، وأخذ النقود وسافر في الحال إلى الإسكندرية .

كان علاء الدين قد باع السقط ولم يبقَ منه إلا قليل ، وكان من بين السقط خُرْزَة ملء الكَف ، لها مِلْسِلَةٌ من ذَهَب ، وعليها طَلَّاسِيمٌ كأرجُل النمل ، فمَلَقَها في مكانٍ بارِزٍ من دكانه ، فرآها قُنْصُل وطلبَ إليه أن يبيعهما له بثمانين ألفَ دينار ، فقال علاء الدين : يَفْتَحُ اللهُ علينا ، فقال القنصل : أَشْتَرِيها بمائة ألفِ دينار ، فقال : بعتهما فناولني ثمنهما ، فقال القنصل : ذلك ثمن لا أَقْدِرُ على تحمله ، فهاتِ الخُرْزَة مَعَكَ ، وأصحبني إلى المركب ، وهناك أعطيك الثمن وأخذُ الخُرْزَة .

أَقْبَلَ علاء الدين دكانه ، وأعطى جَارًا له مِفْتَاحَه وقال : إن طالت مدةُ غيبتى وجاء أحمد الدنف فأعطيه المِفْتَاحَ وأخبره أنى ذهبتُ مع القنصل إلى المركب لأحضِرَ ثمن الخُرْزَة ، فقال له مع سلامة الله ، وسأُنْقِذ ما أَرَدْتُ .

وهناك في المركب أَصَرَ القنصلُ على أن يكرمَ علاء الدين وَيَسْقِيَه شَرابًا تحيةً لِقُدُومِهِ ، فناولَه كأسَ شراب به « بِنِجْ » وما شربه علاء الدين حتى كان في غَيْبُوبَةٍ ، لا يدرى فيها من أمره شيئًا ، ثم أمر القنصل أن تَقْلَعَ المركب وتسير ، وفيها علاء الدين ، حتى كان في وسط البحر ، بحيث لا يُرَى له ساحل ، فأعطاه شَرابًا آخر ، جعله يُفَيِّق من غيبوبته ، ولما أفاق قال : أَيْنَ أنا الآن ؟ فقال القنصل : أنتَ الآنَ وَدِيعَةٌ في يَدِي ، حتى أوصلك

إلى قصر قيطون بمدينة جنوة . فأسلم الأمر لله وسكت .

وقابلهم مراكب فيه أربعون من تجار المسلمين ، فهجم القنصل ورجاله عليهم ، ونهبوا أموالهم وساقوهم أسرى إلى مدينة جنوة .

ودخل القنصل ومعه علاء الدين والأربعون تاجراً قصر قيطون ، فقالت له صبيته فيه : هل أحضرت الخرزة وصاحبها ؟ فقال : نعم ، وأحضرت معهما أربعين أسيراً من تجار المسلمين ، ولما جاءوا بهم إلى الى المدينة أمر بضرب أعناقهم ، فنفذ القتل فيهم واحداً بعد واحد ، حتى نهاية الأربعين ، وجىء بملاء الدين لينفذوا فيه القتل أيضاً ، فخرجت من بين الجمع عجوز وقالت للملك : أما قلت لك : عندما يجيئ القنصل بالأسرى تذكر الكنيسة بأسير أو أميرين ؟ فقال : لو ذكرتني من قبل لأعطيتك حاجتك ، ولكن خذى هذا الأسير الباقي يخدم في الكنيسة ، ففرح علاء الدين بذلك ، لأنه نجى من القتل ؛ ولما كان في الكنيسة سأل العجوز عما يفعله ، فقالت : تأخذ في الصباح البغلة وتذهب إلى الغابة وتحملها حطباً ثم تعود ، وبعد هذا تجمع أبسطة الكنيسة وتكنسها ، وتفعل أرضها ، ثم تفرشها كما كانت ، ثم تأخذ نصف إردب من القمح فتعربله وتطحنه وتعجنه وتخزّه ، ثم تأخذ وجبة من العدس فتنظفها ونطحها ، ثم تملأ هذه الفسقيّات الأربع ماءً ، ثم توزع الطعام على راهبات الكنيسة ورهبانها . فقال علاء الدين : يحسن أن ترجعني إلى الملك ليقتلني ، فقالت : احذر أن تقصر في خدمة الكنيسة

فهي حامية لك من القتل ، وقد رأيت ما فعلَ الملك بالأسرى من المسلمين .
ثم قالت : يا مجنون ؛ ما أتيتُ بكَ إلى الكنيسةِ لتخدم أولسكن خُذ
هذا القضيْبَ النحاسيَّ ، ذا الصليبِ في رأسه ، واخرُجْ إلى الشارع ،
واطلبْ إلى خدمةِ الكنيسةِ من قابلكَ ، عظيماً كان أو غيرَ عظيمٍ ، ثم
احضُرْ معه ، وكلفه أن يقومَ بالأعمالِ التي سَمِعَها من كنس وطَبَّخٍ
وغيرهما .

قال علاء الدين : فما زلتُ على هذه الحالِ مدةً من الزمان ، وذات
يومٍ قالت له العجوز : لا تَبِتْ في الكنيسةِ هذه الليلة ، فقال : ولمَ ذلك ؟
فقالت : إن مريمَ بنتَ الملكِ يوحنا ملك هذه المدينة ستزورها الليلة ،
ولا ينبغي أن تكونَ في الكنيسةِ وقتَ زيارتها ، فقال : سمعاً وطاعة ،
ولكنه أَسَرَّ في نفسه أن يَخْتَفِيَ في مكانٍ منها بحيث يرى مريمَ ولا
يَراهُ أحدٌ .

ولما حضرتْ مريمُ كان في صحبتها صبيَّةٌ تقول لها : آ نَسْتُ
الكنيسةَ يا زُبيدة ، فحدِّقْ علاء الدين في زُبيدة هذه فوجدها زوجها
التي ماتتْ على أثرِ صرخةٍ عاليةٍ في بغداد ؛ ثم قالت لها : يا زُبيدة ، غنِّي
لنا بعضاً من الوقتِ بصوتكِ الجميل ، فقالت : لن أغنِّي حتى تَنِي لي بما
وعدتني به ، فقالت : وما هو ؟ فقالت : وعدتني أن تَجَمِّعَ لي بزوجي
علاء الدين أبي الشامات ، فقالت مريم : قومي غنِّي ، فإن زوجك هنا في
الكنيسة ، ويسمِعنا الآن ونحنُ نَسْكُمُ ؛ وما بدأتْ زبيدة تغنِّي حتى هجَمَ

عليها علاء الدين وضَمَّها إلى صدره ، فوقَعَا من فرطِ سرورها مغشيًا عليهما ، فرشَتْهُمَا مريمُ براءِ الورْدِ حتى أفاقَا ، وقالت لهما : أَهْتَكُمَا بِمَجْمَعِ شَمْلِكُمَا ، فقال علاء الدين : اجتمعنا على محبَّتِكَ والسرورِ بُلُقِيَانَا ولُقْيَاكِ ، ثم التفت إل زُبيدة وقال : أَنْتِ كُنْتَ قَدُمْتُ ودَفَنَّاكِ ، فكيف حَيَّيتِ وجِئْتِ إلى هذا المكان ؟ فقالت : لستُ أنا التي ماتتُ ، ولكنْ اختطفني جانُّ وطار بي إلى هذه الكنيسة ، والتي ماتتُ ودفنتُها جَنِيَّةٌ تماوتتْ حتى دُفِنَتْ ثم نَبَشَتْ قبرها وخرجتْ .

قال علاء الدين لمريم : ولأى شئ فعلتِ بي وبزوجي هذا وجِئْتِ بنا إلى هذا المكان ؟ فالتفتت إلى زُبيدة وقالت : أَلَمْ أَخْبِرْكِ أَنِّي مَوْعُودَةٌ بزواجي من علاء الدين ، ووَعَدْتُكِ أَنِّي سأَجْمَعُكِ به ، ورضيتُ أن أكونَ لكِ ضرَّةً ، لي ليلة ، ولكِ ليلة ؟ فقالت زبيدة : بلى ، وتمنيتُ أن يكون ذلك سريماً حتى أرى زوجي ؛ ثم التفتت مريم إلى علاء الدين وقالت : هل تقبل أن أكونَ زوجةً لك ؟ فقال : ولكذكِ غيرُ مُسلمة ، ولستِ كتابيَّةً ، فقالت : حاشَ لله أن أكونَ غيرَ مُسلمة ، إني مؤمنة بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم منذُ ثمانية عشرَ عاماً ، فقال : ولكني أحبُّ أن أرجع إلى بلادِي ، فقالت : اسمع مني ما أقولُ : أَهْتَكُ ياعلاء الدين بولَدٍ لك في بغداد يسمَّى وحيداً ، وهو الآن في ديوان الخليفة ، وفي وظيفتك التي كنتَ فيها ، وقد ظهر سارقُ أشياء الخليفة ، وهو أحمد قساقم ، وطُرح في السجن يُقايَسُ ألوان العذاب ؛ واعلم أَنِّي أنا التي وضعتُ الخُرْزة في



وكانك ، وكلفتُ القنصلَ أن يحضرَكَ وإياها ، لأنه مشغوفٌ بحبِّي ،
 وجعلتُ ثمنَ زواجي منه أن يحيى بك إلينا ، حتى تلتقي بزواجك زيدة ،
 وأنا التي أرسلتُ المعجوزَ إلى الملك لتُخلِّصَكَ من القتل ؛ فقال : جزاكِ
 اللهُ كلَّ خير ، وما فائدةُ هذه الخُرزة ؟ فقالت : هذه الخُرزةُ من كنزِ
 مرصود ، ولها مزايا ومنافع ستعرفُها بعد ؛ وقعت في يدِ جدتي لأبي ،
 وكانت ساحرةً تقرأ الرموزَ السحرية ، وقد وهبتُ لي هذه الخُرزة ،
 وعرفتني منافعها ، وقد سألتُها أبي عن طالبي فقالت له : ستَموتُ قتيلاً ،
 والذي يقتلكُ أسيرٌ من مدينة الإسكندرية ؛ فخلفَ أبي أن يقتلَ كلَّ
 أسيرٍ يحيى منها ، وقتلَ في سبيل ذلكَ عددَ شعرِ رأسه الأصم ؛ وقد
 سألتُ جدتي عن طالبي أيضاً فقالت : لا يتزوجك أحدٌ إلا علاء الدين
 أبا الشامات ، فمجنبتُ لذلك ، وسكت صابرةً حتى آن الأوان ؛ فتزوجها
 علاء الدين ، وطلبَ إليها أن تذهبَ به وبزوجه إلى بلاده ، فقالت :
 ما دمتَ تريدُ ذلكَ فتعالَ معي ، وأجلستُهُ في حجرةٍ وأقفلتها ، ثم دخلتُ
 على أبيها ، فلما رآها دماها إلى أن تجلسَ بجوارهِ ، لأنه يشمرُ بضيقٍ في
 صدره ، ثم شربَ وسكر ؛ وكانت مريمٌ قد وضعتُ بنجاً في قدحٍ من
 الأقداح التي شربها ، فأغشى عليه ، وتركته مستلقياً على قفاه ، ثم أحضرتُ
 علاء الدين وقالت : هذا خصمك في غيوبته فافعلْ به ما تشاء ، فأوثق
 علاء الدين كتافه ، ثم أيقظته ابنته ، فقال : هل يصح أن تفعلِ هذا
 بأبيك ؟ فقالت : لا نزالُ نحترمك ، فإن آمنْتَ وأسلمتَ أمِنْتَ وسَلِمْتَ ،

وإلا فقد حقّ عليك القتل ، وما ظلمناك ولا عققناك ؛ ولما أبى أن يُسلم ذبحه علاء الدين بخنجره ، وكتب كل هذا في ورقة تركها بجانبه ؛ وجمعت مريم وزيدة وعلاء الدين ماشاءوا من الأموال ، ثم حكّت مريم جانب الخرزة الذي به صورة سرير ، فحضر أمّهم سريرٌ جلسوا عليه ، وطار بهم إلى وادٍ بعيد لا نبات فيه ولا ماء ، وحكّت مريم جانباً آخر من الخرزة وقالت : لينتصب هنا صوّانٌ نسكرُن فيه ، فكان الصوّان كما أرادت ، ثم حكّت جانبين من جوانب الخرزة وقالت : بحقّ من خلق الأرض والسماء ، أوجد لنا ياربّ في هذه الأرض الميتة أشجاراً ونباتاً وأنهاراً ، ومائدة نأكل منها حتى نشبع ، فكان ما طلبت ، وتوضّأوا وصلّوا ، وأكلوا وشربوا ، وأقاموا في هذا المكان يستريحون .

دخل ابنُ الملك على أبيه فوجده مذبوحاً قتيلاً ، ووجد بجانبه ورقة فأخذها وقرأ ما فيها ، وعرف منها ما حصل ، فجعل يبحث عن أخيه مريم فلم يجدّها ، وسأل المجوز عنها فقالت : ما رأيتهَا ، فنادى عسكره وجمع جنوده ، وخرج بهم سائراً في الفضاء ، حتى رأوا علاء الدين وزوجتيه في صوانهم ، فنادى من فرط سروره بِلِقائهم لينتقم منهم : نحن من ورائكم ، ولستم من سيوفنا بناجين ، فنقلَ الريحُ هذا النداء إلى أخيه مريم ، فسألت علاء الدين عن مَبْلَغِ فروسيّته ولقائه الأعداء ، فقال : لا أعرف شيئاً ، فحكّت بإبهامها مكاناً بالخرزة به صورة فارس ، وإذا بفارس بين يديها ، لا يجرؤ إنسان أن يلتقي به في قتال ، فهجم على

جيش أخيه ، وجعل يضرب فيهم بسيفه حتى ولوا مهزومين ، ثم ركبوا سريرهم وذهبوا إلى الإسكندرية ، كما أراد علاء الدين ، ونزلوا بالدكان والمخزن ؛ وفي ذلك الحين قدم عليهم أحمد الدنف من بغداد ، وجلس يبشره بولده وحيد ، الذي بلغ عشرين سنة ، ويقوم بعمل أبيه في وظيفته ، وحكى لهم جميع ما جرى ، وحكى علاء الدين إليه أيضاً ما وقع له ، حتى رجع مع زوجته إلى الإسكندرية ؛ ثم قال أحمد الدنف : إن الخليفة يطلبك يا علاء الدين ، ويجب أن يلقاك ، فقال : لا بأس في ذلك ، ولكنني أحب أن أزور أبي وأمي في مصر ، ثم نساfer جميعنا إلى الخليفة في بغداد .

وركبوا جميعهم السرير ، وطار بهم إلى مصر في الدرب الآخر ، فاجتمع بأهله ، وفرحوا جميعهم باللقاء بعد طول الغيبة . وبعد ثلاثة أيام عرض علاء الدين على أمه وأمه أن يرحلا معه إلى بغداد ، فرضيا بذلك ، وسافروا جميعهم ؛ وهناك نزل علاء الدين وزوجته وأبوه وأمه في بيته ؛ ثم ذهب أحمد الدنف إلى الخليفة ، وأخبره بقدم علاء الدين ، وجميع ما حدث له ، ففرح فرحاً عظيماً ، وأحضره بين يديه ، وأمر أن يحضروا أحمد قاقم من سجنه ، فلما حضر في قيده ، قال الخليفة لعلاء الدين : قم واقتص منه كما تشاء ، فقام إليه وفصل رأسه عن جسده وقال : ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ... ثم منح الخليفة علاء الدين وأهله منحة قيمة وعاشوا في أرغد عيش حتى جاء أجلهم ، وانتقلوا إلى رحمة ربهم .



الصَّيَّادُ وَالْعَفْرِيتُ

كان في قديم الزمان صيَّادٌ بلغَ مِنَ العُمُرِ أرْدَلَهُ ، وله أولاد ثلاثة وزوجة ، وهو يستمدُّ قوته وقوتَ عياله من شبكته ، وكانت لا تمده إلا بالكفاف ، إذ قدَّرَ عليه رزقه ، ولم يكتب له الغنى والثراء .

ذهبَ يوما إلى شاطئِ البحرِ في وقت الظهيرة ، وكان من مادتِه ألا يلقى شبكته في البحرِ إلا أربعَ مرات ، ثم يتناول منها ما تجودُ به ، قليلا كان أو كثيرا ، ولما ابتلع الماء شبكته أولَ مرة ، وجذبها إليه ، وجدَها ثقيلة لا تطاوعُه ، فربطَ حبْلها الذي يُمسِكها في وتدٍ مثبتٍ في الشاطئ ، وخلعَ ملابسه ، وغطَسَ في الماء ، وجعلَ يعالجُ الخروجَ بها ، حتى ألقاها على الشاطئ ، تحملُ في جوفِها حمارا ميتا ، فأصابه غمٌ عظيمٌ ، وأخذَ يُحوقل ويستزجِع ، ولكنَّ الأملَ في رزقه ، لا يزالُ يساورُه ،

ولما استراح قليلا خلع الشبكة من حمارها ، ورمها في البحر مرة ثانية ، ثم جذبها فاستعصت عليه أشد مما كانت في الرمية الأولى ، فنزل وأخرجها ، فألفاها قد التقت حُبًّا كبيرا ، به كثير من الرمل والطين ، فابتأس وحزن ، وقال : يا حرقلة الدهر كُفِّ أَوْعِي ، وتضرع إلى الله أن يُيسرَ له ما قدره ، من رزق قليل أو كثير . ثم ألقى ما علق بالشبكة وعصرها ، ورمها مرة ثالثة ، ثم جرّها إليه فطاوئته ، ولكنه لم يجد فيها إلا قليلا من حجارةٍ وعِصَى ، فهز رأسه هزّة عجبٍ وأسى ، ثم رفع رأسه إلى السماء قائلا :

اللهم إنك تعلم أني لا أربي شبكتي في البحر إلا أربعا ، وقد رميتها ثلاثا ، لم أرزق فيها بزاد لعمالي ، الذين يرتقبون أوتى ، ارتقاب السارى ضوء القمر ، اللهم إنك أرحم بهم مني ، ويديك الخير ، وأنت على كل شيء قدير .

ثم طرح الشبكة مرة رابعة ، وصبر حتى استقرت ، ثم أخرجها فوجد فيها قمحا من نحاسٍ أصفر محتوما بخاتم سليمان عليه السلام ، ففرح به ، إذ قدر ثمنه في نفسه عشرة دنانير ، ولكنه أصر على فتحه ، لعله يجد فيه قطعا من ذهبٍ تكون منبغ غناه ، فجعل يعالج كشف غطاءه المثبت بالرصاص حتى انفرج عنه ، وإذا بدخانٍ يُمور ويصاعد في السماء ، وينتشر ذات اليمين وذات الشمال حتى ملأ الدنيا أمامه .

وما كاد العجبُ يملأ جوانب نفسه ، حتى تحول الدخان إلى مارد

من الجنّ رأسه في السماء ، على مدّة البصر ، ورجلاه في الأرض كأنهما
ساريتان ، فقفت شعر رأسه ، وجفت ريقه في فيه ، وارتعدت فرائضه ،
ودارت من الخوف عيناه في رأسه . ثم انحنى العفريت عليه قائلاً :
لا إله إلا الله ، سليمان نبي الله ، لا تقتلني أيها النبي الصادق ،
فلن تراني أعصى لك أمراً .

فاستجمع الصياد قواه وقال :

ماذا تقول أيها المارد ؟ إن سليمان مضى على موته ألف وثمانمائة
سنة ، ونحن الآن في غير زمنه ، وندين بدين غير دينه ، ونؤمن
بأنبياء من بعده ، فما شأنك ؟ وكيف أقمت في هذا القمقم ذلك
الزمن الطويل الغابر ؟

فقال المارد في نعمة المظمن الفرح ، والقوي المتصبر :

جاءتك البشري يا صياد ، فقرح وقال :

لعلك تحمل إلى سعادة الغنى والبسطة في الرزق .

فقال المارد : أحمل إليك صنوفاً من الموت والفناء لتختار منها

ما تشاء .

فقال الصياد : وهذا جزاء إحساني إليك ، وإطلاقك من السجن

الذي كنت فيه ؟ ١١٩

فقال المارد : لا شيء عندي لك غير ما سمعت ، فاختر لنفسك المية

التي تراها ، فإنني معجل بها الساعة .



فقال : أليس من الحق أن أعرف خطيئةً اقترقتها ، حتى أستحق الموت من أجلها ؟

فقال المارد : لا أعرف لك خطيئة أو إثماً ، ولكنه القدر يُمنيتُ المحسنين ، ويبتلي المؤمنين ، لحكمة لا ندرها في كثير من الأحيان . فقال الصياد : إن الابتلاء الذي خفيت حِكْمَتُهُ يكون مصحوباً بعلّة ظاهرة بادية ، كأن يخوض المرء البحرَ مُبتَغياً رزق الصغار من أبنائه ، فيفترق ويموت ، أما الابتلاء بالموت وحرمان صغار الأولاد من مائلهم وكافلهم فحِكْمَتُهُ خفية ، وأما علّة الموت الظاهرة التي صاحبت هذا الابتلاء فإنها بادية في أنه غشي موطن الخطر ، وإن حالي معك غير هذا ، فلم يكن مِنِّي إلا أنني أحسنت إليك ، وأنا في منأى عن خطرٍ يَحِيقُ بي .

فقال المارد : العلة واضحة ، وستعلمها مما أقصُّ عليك .

فقال الصياد : قل ما بدا لك ، والأمر لله الذي خلقني وخلقك .

فقال المارد : أنا صخر الجنّ ، عصيت سليمان وغوييت ، وكفرتُ به واستكبرت ، فقادني إليه وزيره آصف بن برخيا ، ودعاني إلى الإيمان به وطاعته ، فأصررتُ على كفرى وعصيانى ، فحبسنى في هذا القمقم ، حتى يحبس عن الناس بلائى وشرى ، ثم أوثق غطاءه ، وطبعمه بمخاطه ، ورمى القمقم بى في قاع البحر ، فكثتُ فيه أعواماً وأعواماً ، لا أجدُ فيها حيلةً أفلتُ بها من سجنى ، فمقدتُ العزم على أن أغنى إلى الأبد من

مُنَجِّينِي ، وَلَبِثْتُ عَلَى هَذَا الْعِزْمِ مِثْلَ مِنَ الْأَعْوَامِ ، فَمَا وَجَدْتُ إِلَى النِّجَاةِ سَبِيلًا ، فَقَدْ قُلْتُ فِي نَفْسِي : إِنْ مَنَّ أَنْجَانِي فَتَحْتُ لَهُ كَنْوَزَ الْأَرْضِ ، وَقَضَيْتُ لَهُ كُلَّ مَا يُرِيدُ ، وَارْتَقَبْتُ أَرْبَعًا مِائَةَ عَامًا ، فَمَا أَنْجَانِي أَحَدٌ ، فَثَارَتْ ثَوْرَةُ الْغَضَبِ فِي نَفْسِي وَقُلْتُ : مَنْ فَتَحَ السَّاعَةَ بَابَ سَجْنِي هَذَا فَتَحْتُ لَهُ أَبْوَابَ الْمَوْتِ ، يَخْتَارُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ ، وَهَأَنْتَ ذَا قَدْ فَتَحْتَ بَابَ الْقَعْمِ ، فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ كَيْفَ تَمُوتُ ؟

فَقَالَ الصَّيَادُ : وَلَكِنْ الْمَرْءُ يُجْزَى بِنَيْتِهِ ، لَا بِنَيْتِ غَيْرِهِ ، وَأَنْتَ الَّذِي نَوَيْتَ أَنْ تَقْتُلَنِي ، فَكَيْفَ تَلْزِمُنِي نَيْتَكَ ، وَمَا قَدَّمْتُ لَكَ إِلَّا الْخَيْرَ وَالنِّجَاةَ ؟

فَقَالَ الْمَارِدُ : مَا مِنْ ذَلِكَ بُدٍّ ، وَيَظْهَرُ أَنَّ الْإِنْسَانَ طَبَعَ عَلَى الْعَمَلِ رَهْبًا ، أَكْثَرَ مِمَّا طَبَعَ عَلَى الْعَمَلِ رَغْبًا ، فَسَاقَكَ الطَّبَعُ الْعَامُّ أَوْ الْجَدُّ الْعَاثِرُ إِلَى أَنْ تَخْلُصَنِي وَأَنَا أَنْذِرُ ، وَلَمْ تَخْلُصْنِي وَأَنَا أَبْشُرُ ، وَذَلِكَ مَا كُتِبَ عَلَيْكَ ، وَقُدِّرَ لَكَ .

فَقَالَ الصَّيَادُ : إِنَّ مَعَ الْمُسْرِ يُسْرًا ، وَمَعَ الضِّيقِ فَرَجًا ، وَمَعَ الْعُقُوبَةِ عَفْوًا ، فَإِذَا شَفَعْتَ يَدِي عِنْدَكَ بِتَنْجِيَّتِكَ ، عَفَوْتَ عَنِّي ، وَخَلَيْتَ سَبِيلِي ، إِلَى أَوْلَادِي ، الَّذِينَ لَا كَافِلَ لَهُمْ غَيْرِي !

فَقَالَ الْمَارِدُ : ذَلِكَ مَا لَا يَكُونُ ، وَمَا تَرَكْ لَكَ فُرْصَةَ التَّفَكُّيرِ فِي اخْتِيَارِ مَا تَشَاءُ مِنْ أَلْوَانِ الْمَوْتِ الْمُحْتَمِ .

فَقَالَ الصَّيَادُ فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ : اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ ،

وليس لي الآن إلا أن أحتال لنجاتي ، ولو كانت بهلاك هذا المارد الذي كفر بنعمة ربه ، ثم قال للمفريت : بالاسم الأعظم المنقوش على خاتم سليمان أن تصدقني فيما أسألك عنه ، فاضطرب المفريت لهذا القسم وقال : قل ما شئت فإني محييكَ عما تسأل .

فقال الصياد : لا أكاذُ أصدقُ أنك كنت في هذا القمقم على صغره وضيقه ، وعظم جسمك وضخامته ، ولا بُدَّ أن تكون من مردة هذا المكان ، وتنتحل العلل لقتلي .

فقال المارد : وكيف تصدقُ أني كنت فيه ؟

فقال : أن أراك بعيني رأسي داخله ، وبعد ذلك تكون في حلٍّ من قتلي ، أو المفور عني .

فقال المارد لك ذلك ، ثم انتفض فصارت دُخانا يتسرَّب داخل القمقم ، وما كاد يدخله ، حتى أطبق الصياد عليه غطاءه ، وأحكم وضعه وتثبيتته ، ثم ناداه : أيها المارد الكافر بنعمة مولاه ، لقد أوقعتُ كفرُك بالنعمة ، في ذلك السجن الذي لا تَبْرُحه ، حتى قيام الساعة ، وسأذيعُ خبرك ، وأحذرُ الصيادين من ققمتك حتى تلبث فيه أبداً الآبدن ، فنَدِمَ المفريت وتضرَّع إلى الصياد قائلاً : أحسن إلىَّ بالإفراج عني أحسن إليك .

فقال الصياد : إن أحسنتُ إليك لقيتُ منك ما لقيتهُ الحكيمُ دوبان

من الملك يونان ، فقال المارد : وكيف كان ذلك ؟ فقال الصياد :

« كان في المصور الحالية ملكٌ بمدينة في الفرس يُدعى « يونان » ،

أصابه برصٌ شَوَّهَ خَلْقَهُ ، وعكَّرَ هَناءَهُ ، وطامَنَ مِنْ كِبَرِيائِهِ وَعِزَّتِهِ ، ولم يُجِدْ ما أنفقَه مِنْ مالٍ ، وَمَنْ أَحْضَرَهُم مِنَ الْأَطِبَّاءِ وَالْحُكَمَاءِ فِي شِفَائِهِ شَيْئًا ، حتى استَيْأَسَ وَظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَقْدَرَ عَلَى إِبْرَائِهِ مِنْ هَذَا الْمَرَضِ أَحَدٌ .

وكان قد وَفَدَ إِلَى تِلْكَ الْمَدِينَةِ حَكِيمٌ عَمَرَ طَوِيلًا ، وَحَذَقَ الطَّبَّ وَالْحِكْمَةَ ، وَمَهَرَ فِي مَعْرِفَةِ خَوَاصِ النَّبَاتِ ، وَمَالِهِ مِنْ نَفِيعٍ وَضَرَرٍ ، وَلَمَّا عَلِمَ مَرَضَ الْمَلِكِ « يُونَانَ » وَعَجَزَ الْأَطِبَّاءِ وَالْحُكَمَاءِ عَنْ شِفَائِهِ مِنْهُ ، لَبِسَ أَفْخَرَ مَا عِنْدَهُ ، وَذَهَبَ إِلَيْهِ فِي مَجْلِسِهِ ، فَقَبَّلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَلَسَ بَعْدَ أَنْ أَذِنَ لَهُ ، فَعَرَفَ الْمَلِكُ بِنَفْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ : لَقَدْ عَزَّ عَلَى وَأَنْتَ قَلْبُ شَعْبِكَ النَّابِضُ ، أَنْ يَحْزُنَكَ مَرَضُكَ ، وَتَيْأَسَ مِنْ عِلاجِهِ ، فَجِئْتَ إِلَيْكَ مَدْفُومًا بِمَا أَحْمَلُهُ لَكَ مِنْ وِلَاءٍ وَنَجْوةٍ ، لِأَبْرَثِكَ مِنْهُ ، دُونَ أَنْ تُسْقَى دَوَاءً ، أَوْ يَمَسَّ جِسْمَكَ مَرَمٌ ، فَاسْتَبَشَرَ الْمَلِكُ وَقَالَ : وَلَنْ فَعَلْتَ هَذَا فَلَكَ عِنْدِي كُلُّ مَا تَتَعَنَّى ، وَكُنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ نَفْسِي ، وَكَانَ لَكَ فَضْلٌ عَلَى الْأَيَّامِ لَا يَنْسَى ، فَقَالَ الْحَكِيمُ « دُوبَان » ذَلِكَ وَاجِبٌ عَلَيْنَا أَدَاؤُهُ ، وَإِنْ فَنَيْتَ أَنْفُسَنَا فِي سَبِيلِهِ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ الْمَلِكُ أَنْ يَقُومَ لِإِنْجَازِهِ ، فَأَذِنَ لَهُ ، وَأَعْدَقَ عَلَيْهِ كَثِيرًا مِنْ مَالِهِ ، وَوَكَّلَ بِهِ جُنْدًا تَحَفَّتْ بِهِ إِلَى دَارِهِ ، وَهَنَّاكَ عَمَلِ صَوْلْجَانَا وَكَرَّةَ ، وَجَعَلَ فِي مَقْبَضِ الصَّوْلْجَانِ مَا شَاءَ مِنَ الْأَدْوِيَةِ ، بِمَحِيطٍ تُتَسَرَّبُ إِلَى جِسْمٍ مَنْ يُمْسِكُهُ ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْمَلِكِ فَوَجَدَهُ جَالِسًا عَلَى عَرْشٍ عَظِيمٍ ، فِي بَهْوٍ فَسِيحٍ ، فَرَشَتْ أَرْضُهُ بِالطَّنَافِسِ الْوَابِرَةِ ، وَقَدْ جَلَسَ أَمَامَهُ الْوُزَرَاءُ وَالْحَاشِيَةُ ، فِي اسْتِدَارَةِ الْمَلَالِ وَتَأَلُّقِهِ ،

فَقَبَّلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَجْلَسَهُ الْمَلِكُ عَنْ يَمِينِهِ ، وَبَالَغَ فِي الْحَفَاوَةِ بِهِ ، ثُمَّ قَالَ الْحَكِيمُ دُوبَانَ لِلْمَلِكِ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ الْحَاضِرِينَ بِهِ : هَذِهِ كُرَةٌ ، وَهَذَا صَوْلْجَانٌ ، أَعَدَدْتُهُمَا لَتَلْعَبَ بِهِمَا فِي مَكَانٍ فَسِيحٍ ، مَعَ الْكَدِّ وَالْإِجْهَادِ ، حَتَّى يَمْرُقَ كَفُّكَ ، فَيَسْرِيَ الدَّوَاءُ مِنْ مَقْبِضِ الصَّوْلْجَانِ إِلَى جِسْمِكَ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَذْهَبُ إِلَى الْحَمَامِ فَتَسْتَعِمُّ ، ثُمَّ تَذْهَبُ إِلَى سَرِيرِكَ لِتَنَامَ وَتَأْخُذَ رَاحَتَكَ ، وَسَتَهَبُ مِنْ نَوْمِكَ ، وَقَدْ بَرَأْتَ بِعَوْنِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ الْحَكِيمُ أَنْ يَنْصَرِفَ إِلَى دَارِهِ ، فَأَذْنَلَ لَهُ .

وَتَقَدَّ الْمَلِكُ مَا أَشَارَ بِهِ الْحَكِيمُ دُوبَانَ ، فَلَمَّا أَشْرَقَ الصَّبَاحُ وَهَبَ مِنْ نَوْمِهِ ، لَمْ يَجِدْ أَثَرًا لِلْبَرَصِ فِي جِسْمِهِ ، فَاغْتَبَطَ الْمَلِكُ وَأَشْرَقَ قَصْرُهُ بِنُورِ الْإِنْشِرَاحِ وَالْبَهْجَةِ ، وَذَاعَ ذَلِكَ النَّبَأُ فِي الْمَدِينَةِ ، نَفَقَتْ أَعْلَامُ السَّرُورِ عَلَى الدُّورِ ، وَمَاجَ الشَّعْبُ فَرَحًا بِشِفَاءِ الْمَلِكِ .

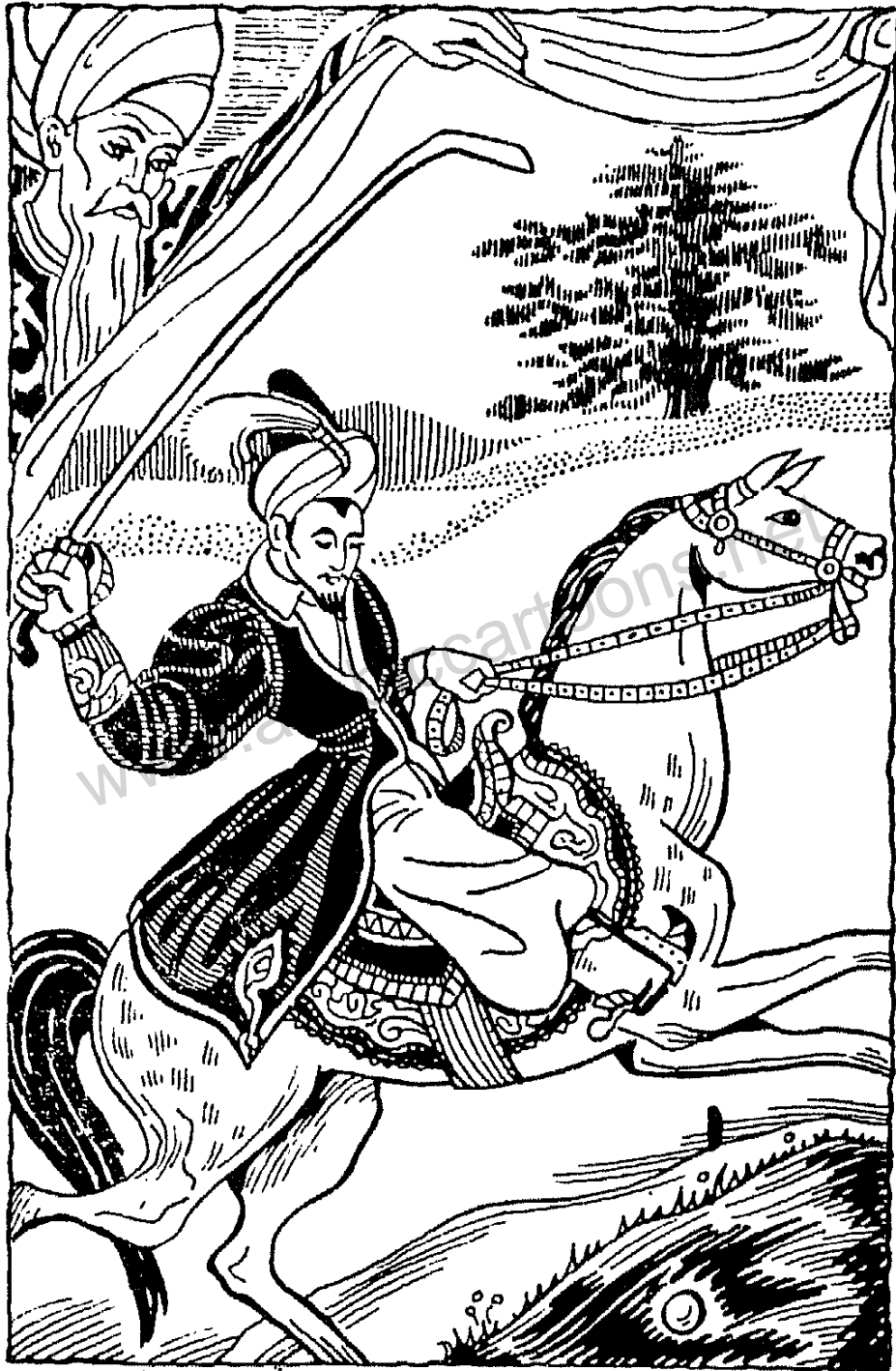
ثُمَّ دَمَا الْمَلِكُ الْحَكِيمَ دُوبَانَ فَأَجْلَسَهُ بِجَوَارِهِ ، عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ وَزَرَاتِهِ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَأَذْنَى إِلَيْهِ مَنَزَلَتَهُ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ مَالَهُ وَنِعَمَهُ ، وَجَعَلَهُ أَوَّلَ الْمُقَرَّبِينَ لَدَيْهِ .

فَارَتْ زَوْجَةُ الْحَسَدِ فِي نَفْسِ أَقْبَحِ الْوُزَرَاءِ شَكْلًا ، وَالْأَمَهْمُ طَبْعًا ، وَأَخْبَتْهُمْ نَزْعَةً ، وَأَشْدَمَ حَقْدًا وَسَخِيمَةً ، فَوَسَّوَسَ إِلَى الْمَلِكِ وَقَالَ : الْعَاقِلُ مَنْ نَظَرَ فِي الْمَوَاقِبِ ، وَعَمِلَ لَهَا حَتَّى يَأْمَنَ شَرَّهَا ، وَمَنْ خَدَعَتْهُ ظَوَاهِرُ الْأُمُورِ جَهَلَ بِوَاطِنِهَا ، وَحَاقَ بِهِ خَطَرُهَا ، وَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الْحَكِيمِ دُوبَانَ ، الَّذِي قَرَّبْتَهُ ، وَرَكَنْتَ إِلَى الثِّقَةِ بِهِ ، وَلَا إِخَالَه إِلَّا

عَدُوًّا فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ ، فَقَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ دَفَعْتَ الْحَسَدُ إِلَى أَنْ قُلْتَ فِي الْحَكِيمِ دُوبَانَ مَا قُلْتَ ، وَمَا عَهْدُ نَاهٍ إِلَّا أَخًا مُخْلِصًا ، وَحَكِيمًا مَاهِرًا ، قَدْ لَا يَكُونُ لَهُ نَظِيرٌ فِي الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَبْرَأْتَنِي مِنَ الْمَرَضِ ، دُونَ أَنْ أُسْقَى دَوَاءً ، وَمَا سَمِعْنَا بِهِذَا مِنْ قَبْلُ ، فَقَالَ الْوَزِيرُ : ذَلِكَ مَوْطِنُ الْخَطَرِ ، فَإِنَّ الَّذِي يَشْفِيكَ دُونَ دَوَاءِ تَتَنَاوَلُهُ ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْتُلَكَ بِشَيْءٍ تَشْتَهيه ، أَوْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَلَا إِخَالَه إِلَّا جَاسُوسًا جَاءَنَا لِيَقْضِيَ حَاجَةً فِي نَفْسِ أُمْتِهِ وَمَلِكِهِ ، وَأَخُوفُ مَا أَخَافُ مِنْهُ ، أَنْ يَنَالَ حَيَاتَكَ بِمَكْرُوهِ أَوْ أَذَى ، فَلَوْ قَتَلْتَهُ ، لَا سَتَرْنَا مِنْ خَطَرِهِ ، فَقَالَ الْمَلِكُ : لَوْ مَنَحْتُهُ نِصْفَ مَلِكِي لَكَانَ قَلِيلًا بِجَانِبِ مَا قَدَّمْتُهُ لِي مِنَ الْمَعْرُوفِ ، وَلَئِنْ قَتَلْتَهُ لَنَدِمْتُ كَمَا نَدِمُ السَّنْدُبَادُ عَلَى قَتْلِهِ الْبَازِي ، فَقَالَ الْوَزِيرُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ الْمَلِكُ يُونَانَ : كَانَ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ أَحَدُ مَلُوكِ الْفَرَسِ ، وَكَانَ مُغْرَمًا بِالصَّيْدِ وَالْقَنَصِ ، وَلَهُ بَازٌ رَبَّاهُ عَلَى عَيْنِهِ ، وَاصْطَنَعَهُ لِنَفْسِهِ ، يَصْحُبُهُ فِي خُرُوجِهِ لِلصَّيْدِ ، فَيُعِينُهُ عَلَى اقْتِنَاصِ مَا أَصَابَهُ ، مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ ، وَقَدْ أَلْفَ كُلُّهُمَا مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، فَأَحَبَّهُ الْمَلِكُ ، وَأَحَبَّهُ بَازُهُ .

وَذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَ الْمَلِكُ فِي ثُلَّةٍ مِنْ عَسَاكِرِ الصَّيْدِ إِلَى الْبَرِيَّةِ ، فَخَبَسُوا بَيْنَهُمْ غَزَالًا يَعْجِبُ النَّاظِرِينَ ، فَنَادَى فِيهِمُ الْمَلِكُ : أَنْ احْذَرُوا أَنْ يُفْلَتَ الْغَزَالُ مِنْ بَيْنِكُمْ ، وَمَنْ فَرَّ الْغَزَالُ مِنْ نَاحِيَتِهِ قَتَلْتُهُ ، وَأَنَا فِي هَذَا مَعَكُمْ ، وَعَبْنَا حَاوِلَ الْغَزَالِ أَنْ يَهْرُبَ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَسْكَرِ ، إِذْ كَانُوا عَلَى يَقْظَةٍ وَحَذَرٍ ، فَتَغَفَّلَ الْغَزَالُ الْمَلِكَ وَفَرَّ مِنْ نَاحِيَتِهِ ، وَانْطَلَقَ

مع الريح في البرية ، وعَزَّ على الملك أن يكون أضعف من عسكره ،
أو مُقصرًا في واجب مفروض أمامهم ، فركب جواده ، وأرعى عنائه ،
وطار به من خلفه ، والباز طائر من فوقه . وأسرع الباز ولحق بالغزال ،
وجعل يضرب عينيه بأجنحته ، فموتقه عن الجري السريع والهرب ،
وأمسكه الملك وذبحه ، وأخذه معه ، وكان الحر قد اشتد أوارُه ، وبلغ
العطش بالملك وجواده شدته ، وما كاد يرى شجرة يتقاطر الماء منها ،
حتى أوى إليها ، ليستريح في ظلها ، ويُسقى من ماثها ، وأخذ الملك
طاسًا وملاء من ذلك الماء المتقاطر ، ووضع أمامه ، ليشرب ماءه ،
فأسرع الباز وضربه بجناحه فكفأه ، وأراق ماءه ، فلأه الملك ثانية
ووضعه أمام الجواد ، فأسرع الباز أيضًا ، وقلب الطاس وهراق الماء ،
فلأه ثالثة وقدمه للباز ليشرب ، ففعل به ما فعله في المرة الأولى والثانية ،
فاحتدم الملك غيظًا وغضبًا ، وجرد سيفه ، وضرب الباز به ضربة جعلته
قطعتين ، فحرك الباز رأسه مُشيرًا إلى أعلى الشجرة ، والتفت الملك إلى
مرمى نظره ، فرأى فوق الشجرة حية ضخمة ، يسيل السم من فيها ،
فأدرك أن الباز فعل ما فعل ، محافظةً عليه وعلى جواده ، فابتأس وندم ،
حيث لا ينفعه الندم ، وركب جواده إلى عسكره كثيبًا حزينًا . فأنا أيها
الوزير إن قتلت الحكيم دوبان خسرتُه ، وخسر الشعب كفايته ، وحرم
نفعه ، كما خسِرَ الملك بازَه ، إذ قتله بيده ، وكان يدفع عنه موتًا عاجلاً ،
فقال الوزير : وما يخيفنا من الحكيم دوبان إلا كفايته ، ما دامت غير



مصحوبة بالثقة به ، والاطمئنان إليه ، وإذا كان قد شفاك من مرضٍ استقصى على حكماء أمتك وأطبائها بشىء أمسكته ، فليس ببعيد أن يفجعنا فيك بشىء تشمه ، تنفيذاً لمكيدة من أحد الملوك ، الطامعين في ملكك ، والغدر مخلوق في طبع ابن آدم ، والمأقل من أخذ منه حذرته ، فقال الملك : أنسيت أن من الغدر قتله ، وأن طائفة الغدر وخيمة ؟ فقال الوزير : كنس ما أشير به عليك من قتله غدرا ، ولكنّه الخيطة والحذر ، وما أردت لك إلا النصح والسلامة ما استطعت ، والأمر بعد ذلك إليك ، فاختلطت وجوه الرأي أمام الملك ، ونجم في نفسه ناجم من الخوف على حياته ، أن يطوف عليها طائف من غدر الحكيم دوبان وخيائته ، فنزل على رأي وزيره ، وقرّر قتله ، وأرسل في طلبه .

ولما حضر الحكيم دوبان قال الملك له : أتدرى ما جئت له ؟ فقال : إنما العلم عند الله ، وعسى أن يكون خيراً ، فقال الملك : هو خير لنا ، وأحييت أن أعجل به ، فقال الحكيم : ويسرنا أن يكون لنا يد فيه ، فقال الملك : ليست يدك ، ولكنها روحك التي بها حياتك ، فقد حلت بقتلك ، ولهذا أحضرتك ، فدهش الحكيم وقال : وهل فعلت ما يستوجب ذلك ؟ فقال الملك : وهل مثلى يقتلك غيلةً وغدرا ؟ فقال : ولكنى لا أعرف لى ذنبا ، فقال الملك : إنك بذنبك تليم ، غير أن أمثالك بمن يجهئون لمثل ما جئت من أجله ، يخفون في أنفسهم ما لا يُبدونه لأصحابهم ، وقد بلغني أنك جئت للتجسس علينا واغتيالنا ،

فكان من الحزم أن تقتلك قبل أن تقتلنا ، فقال الحكيم : إذا كان من الحزم قتلى ، فمن الحق أن تتبين أمرى ، حتى لا تُصيبني بجهالة فتصبح على ما فعلت من النادمين ، فقال الملك : إن أمرَكَ لا يدعو إلى التَّبين الذى يبعثُ فى النفس اليقين ، ويكفى فيه الأخذ بالظنَّة ، وأنت قد أبرأتني من مَرَضِ أعجز الأطباء والحكماء شفاؤهُ ، بشيء أمسكته يدي ، ومن الجائر أن تقتلني بشيء أشبه أو أليسه ، فأصبح من الحذر قتلك ، حتى نأمن من شرك ، وذلك ما عزمنا عليه ، ولا رادَّله ، فقال الحكيم : أعتقد أن باب عفوك يتسع لثلى ، إن كان ما بلغك عنى حقا لاريب فيه ، فكيف إذا كان قائما على الحدس والظن ؟ فقال الملك : الحدس واليقين فى هذا الأمر سواء ، لأنه عمن الملك والعرش ، أما العفو ففيه مجال لأن يحمل أمثالك يطعمون فيما طمعت فيه ، وقد لا نقتبه لكيدم كما انتبهنا الآن لكيدك فينفذ فينا سهمهم ، فقال الحكيم : لا يفوتك أيها الملك أن العفو عملٌ صالح ، والعمل الصالح وقاية لصاحبه وردّه يحميه ، فقال الملك : العمل القائم على التفريط وعدم البصر بالمواقب لا صلاح فيه ، فقال الحكيم : وهلا أجد عند الملك مهلة إلى الغد على أن أكون فى حماية حُرَّاسِكَ ، حتى أكتب وصيتي لأهلى ، وأحضرك هدية تذكرنى بها بعد موتى ؟ فقال الملك : أما الوصية فسامكنك منها ، ولا شأن لى بها ، وأما الهدية فأحب أن أعرف شيئا عنها قبل أن تحضرها ، فقال الحكيم : إنها كتاب من الطب ، إذا أنت فصلت

رَأْسِي مِنْ جَسَمِي ، وَوَضَعْتَهُ فِي صَحْفَةٍ بِيضَاءَ مِلْسَاءَ ، ثُمَّ فَتَحْتُ هَذَا الْكِتَابَ ، وَعَدَدْتُ ثَلَاثَ وَرَقَاتٍ ، وَقَرَأْتُ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ مِنَ الصَّفْحَةِ الْيُسْرَى ، ثُمَّ سَأَلْتُ الرَّأْسَ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ أَجَابَكَ عَنْهُ أَجَابَةً صَّحِيحَةً .

وَجَاءَ الْحَكِيمُ ، وَفَصَلَ الْمَلِكُ رَأْسَهُ ، وَوَضَعَهُ فِي الصَّفْحَةِ أَمَامَهُ ، وَأَخَذَ يَقْلِبُ أَوْرَاقَ الْكِتَابِ ، فَلَمْ تَطَاوِعْهُ الْأَوْرَاقُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَدَلَ إصْبَعَهُ مِنْ فِيهِ ، فَلَمَّا عَدَّ الثَّلَاثَةَ الْأَوْرَاقَ ، لَمْ يَجِدْ كِتَابَةً فِي الصَّفْحَةِ الْيُسْرَى ، فَسَأَلَ الرَّأْسَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : اسْتَمِرْ فِي عَدِّ أَوْرَاقِ الْكِتَابِ حَتَّى تَعْتَزُّ عَلَى الْكِتَابَةِ ثُمَّ اقْرَأْهَا ، فَجَعَلَ يَقْلِبُ الْأَوْرَاقَ وَرَقَةً وَرَقَةً ، وَفِي كُلِّ وَرَقَةٍ يَبْلُلُ أَصْبَعَهُ مِنْ فِيهِ ، حَتَّى سَرَى السَّمُّ الَّذِي فِي الْأَوْرَاقِ فِي جَسَمِهِ ، وَأَحْسَنَ الْمَلِكُ آثَارَهُ ، فَأَدْرَكَ الْمَكِيدَةَ الَّتِي كَانَتْ مِنْ صُنْعِ غَدْرِهِ ، وَرَمَى الْكِتَابَ مِنْ يَدِهِ ، وَمَالَبَتْ غَيْرَ قَلِيلٍ حَتَّى كَانَ مَعَ الْحَكِيمِ دُوبَانٌ فِي عَالَمِ الْفَنَاءِ ، فَنَطَقَ الرَّأْسُ قَائِلًا : حَكَمُوا فَاسْتَطَالُوا وَمَا دَرَوْا أَنَّ الْحُكْمَ غَيْرُ بَاقٍ ، لَوْ أَنْصَفُوا أَنْصَفُوا وَلَكِنَّهُمْ بَغَوْا فَأَصْبَحُوا وَمَا لَهُمْ مِنَ الْمَوْتِ مِنْ وَاقٍ ، لَا تَعْجَبُوا فَبِذَاكَ وَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْخَلَّاقِ .

فَلَوْ أَنَّ الْمَلِكَ أَيُّهَا الْعَفْرِيَّتُ أَحْسَنَ إِلَى الْحَكِيمِ كَمَا أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، مَا أَصَابَهُ الْمَوْتُ الَّذِي أَصَابَهُ ، وَكَذَلِكَ أَنْتَ لَوْ قَابَلْتَ مَعْرُوفِي مَعَكَ بِمَعْرُوفٍ مِثْلِهِ ، مَا كُتِبَ عَلَيْكَ السَّجْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، وَالَّذِي سَتَمَكْتُ فِيهِ أَبَدَ الْأَبَدِينَ ، وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ ، فَقَالَ الْعَفْرِيَّتُ : إِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ

توقظه النوائب من غفلته ، وتردُّ إليه صوابه ، وقد عرفتُ الآن أني لم أقدرُ معروفك حقَّ قدره ، وأصلَّتني سَوْرَةُ الغضبِ عن الصراطِ السويِّ ، فوقفتُ منك هذا الموقفَ المنكرَ الفادر ، وقد تبَّتُ الآن إلى الله توبةً نصوحاً ، ولكَ أن تأخذَ عليَّ من الموائيقِ ما يطمئنُّكَ ، ويعلِّمُ نفسك ثقةً بي ، فأخذَ الصيادُ عليه الميثاقَ ألا يغررَ به ، وأن يجزيه خيرَ الجزاء ، وابتهلَ إلى الله أن يكلاه ، إذا ما تقضَى العفريتُ ميثاقه ، وباسمِ الله كشفَ غطاءَ القممِ فخرج منه دخانٌ كالريحِ العاصفِ ، ثم تحوَّلَ إلى شبحٍ إشعَ المنظر ، مُشوهِ الخَلِقة ، وضربَ القممَ برجله فإلقاءً في اليمِّ ، فخشى الصيادُ أن يكونَ هذا نذيرَ الخيانةِ والغدرِ ، وارتقبَ في فزعٍ ما عسى أن يصنعه العفريتُ به ، وأذركَ العفريتُ ما أَلَمَّ بالصيادِ من رعبٍ ورهبٍ ، فقال : لا تخفَ ولا تحزنْ ، وسأجزيك بما فعلتَ خيراً جزيلاً ، فاتبعني إلى حيثُ أسير .

وسارَ الماردُ والصيادُ من خلفه ، حتى وصلا إلى جبلٍ فصعدا فيه ، وامتطيا صهوةً ، ثم انزلقا على سطحه الآخر ، حتى كانا في أسفلِهِ ، على حافةٍ بركةٍ يحيطُ بها أربعةُ جبالٍ ، وفيها سمكٌ مُختلفُ ألوانه ؛ فمنهُ الأبيضُ والأحمرُ ، والأصفرُ والأخضرُ ، فأمرَ الماردُ الصيادَ أن يطرحَ فيها شبكتَه ، فأخرجتُ أربعَ سمكاتٍ ذاتِ ألوانٍ مختلفةٍ ، فقال الماردُ : خذْ هذه السمكاتِ إلى قصرِ المليكِ ، فستأخذُ منها ما يُغنيكَ ويُرضيكَ ، والآنَ أستودعُكَ ، ثم ضربَ الأرضَ برجله فانشقتُ ، وهوى فيها ثم ارتثقتُ ، والتأمتُ .

أما الصيادُ فقد وضع السمكات في قفّته ، ثم حملها إلى منزله ، وهناك وضع السمك في وعاء به ماء حتى الصباح ، ثم حمله إلى قصر الملك ، ولما رأى الخدم أن السمك المعروضَ عليهم غريبُ الشكل أخبروا الملكَ أمره ، فطلب الصيادَ والسمكَ إليه ، ولما رآه عجب منه ، وأمر أن يُعطى الصيادُ أربع مائة دينار ثمنه ، فأخذها الصيادُ وانتقل إلى أهله مسرورا .
وأما السمكُ فقد كلفت بنضجه طاهيةٌ هندية ، كان قد أهداها له ملكُ الروم منذ ثلاثة أيام ، ولما قارب النضج في الزيت ، انشق جدارُ المطبخ عن فتاةٍ هي أجمل من وقعت عليه عينُ بشر ، بيدها عصا من الخيزران ، فوضعت طرفيها في وعاء السمك وقالت : يا صمك ، يا صمك ، هل أنت على العهدِ مُقيم ؟ فرفع السمكُ رأسه وقال : نعم ، نعم ، ثم كفأت الفتاة الوعاء ، ودخلت جدارها ، فأبتلعها ثم التأم ، أما السمكُ فقد صار حجرا طافئا أسود كالقحم .

وبينما الجارية في فزعها ودمشتها إذ جاءها الوزيرُ يأمرها بإحضار السمك إلى الملك ، فبكت وقصّت عليه ما رأت ، فعجب الوزيرُ وأرسل في طلب الصياد ، وأمره أن يحضر أربع سمكاتٍ غيرهن في التو والساعة ، ومكث مع الجارية ليرى هو نفسه ماذا يكون من أمر السمك ، ولكنه لم يجد إلا ما قصته عليه الجارية ، فدهش وتحير ثم قال : ذلك أمر لا ينبغي إخفاؤه على الملك ، وأتقى في سميع الملك ما قصته الجارية ، وصدقته رؤيته ، فأمر الصياد أن يأتيه بأربع سمكاتٍ ، وأشرف الملك نفسه على



نَضِجَ السَّمَكُ فِي تِلْكَ الْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ ، فَرَأَى مَا رَأَتْهُ الْجَارِيَةُ وَرَأَاهُ الْوَزِيرُ ،
 إِلَّا أَنَّ الْجِدَارَ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ انْشَقَّ عَنْ عَبْدِ أَسْوَدَ ضَخْمِ الْجِثَّةِ ، فِي يَدِهِ
 عَصَا مِنْ شَجَرَةٍ ، فَمَجَّبَ الْمَلِكُ وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الصَّيَادِ فَسَأَلَهُ : مِنْ أَيْنَ
 تَأْتِي بِهَذَا السَّمَكِ ؟ فَقَالَ : مِنْ بَرَكَةٍ وَاسِعَةٍ خَلْفَ هَذَا الْجَبَلِ . الَّذِي
 يُشْرِفُ عَلَى مَدِينَتِكَ . وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهَا مَسِيرَةٌ نِصْفُ سَاعَةٍ ، فَزَادَ الْمَلِكُ
 عَجَبًا وَدَهْشَةً ، وَسَأَلَ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْمُسْكِرِ : هَلْ مِنْكُمْ مَنْ رَأَى
 هَذِهِ الْبَرَكَةَ ؟ فَقَالُوا : لَمْ نَرَهَا ، وَلَمْ نَعْلَمْ شَيْئًا عَنْهَا ، فَقَالَ : هَيَّا بِنَا إِلَيْهَا ،
 وَلِنَأْخُذَ إِلَى مَدِينَتِي هَذِهِ حَتَّى أَعْرِفَ أَمْرَ هَذِهِ الْبَرَكَةِ .

وَسَارَ فِي جُنْدِهِ وَحَرَسِهِ وَوُزَرَائِهِ ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَعْيَانِ الْمَدِينَةِ
 وَرَجَالِهَا ، وَنَزَلُوا عَلَى حَافَةِ الْبَرَكَةِ ، فَضَرَبُوا خِيَامَهُمْ وَأَقَامُوا ، ثُمَّ أَسْرَأَ إِلَى وَزِيرٍ
 مِنْ وَزَرَائِهِ ، مَعْرُوفٍ بِالْحَسَكَةِ وَالْخُبَرَةِ ، أَنْ يَجْلِسَ عَلَى بَابِ خَيْمَتِهِ ،
 حَتَّى يَخْرُجَ وَحْدَهُ ، عَلَى غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَخَفِيَةٍ ، لِيَعْرِفَ هُوَ نَفْسُهُ أَمْرَ
 هَذِهِ الْبَرَكَةِ . ثُمَّ يَعُودَ إِلَى خَيْمَتِهِ ، دُونَ أَنْ يَعْلَمَ ذَلِكَ أَحَدٌ مِمَّنْ مَعَهُ .

ثُمَّ تَنَكَّرَ فِي زِيٍّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، وَجَمَلَ خَنْجَرَهُ فِي جَيْبِهِ . وَخَرَجَ
 يَمْشِي عَلَى حَافَةِ الْبَرَكَةِ ، لَمَّا رَى شَيْئًا جَدِيدًا ، أَوْ يَعْثُرُ عَلَى أَحَدٍ . يَقْفُهُ
 عَلَى حَقِيقَتِهَا ، وَطَالَ بِهِ الْمَسِيرُ حَتَّى لَاحَ لَهُ شَبَحُ أَسْوَدَ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ ،
 فَوَجَدَهُ قَصْرًا مُنِيفًا ، مَبْنِيًّا بِحِجَارٍ سَوَادَةٍ ، وَمُصَفَّحًا بِالْحَدِيدِ ، قَدْ أَغْلَقَ
 أَحَدُ مَصْرَاعِي بَابِهِ ، وَفُتِحَ الْآخَرُ ، فَطَرَقَ الْبَابَ طَرَقًا خَفِيفًا ، ثُمَّ
 طَرَقَهُ طَرَقًا عَنِيفًا ، ثُمَّ أَشَدَّ عُنْفًا ، فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، فَدَلَفَ مِنَ الْبَابِ إِلَى

دهليزٍ مُستطيل وجَمَلَ ينادى : طابُ سبيلِ يَبْنِي ماءً وزادا ، فلم يستجبْ
لندائه أحد ، فانفلتَ منه إلى رَحْبَةٍ فسيحةٍ وَسَطِ القَصْرِ ، مستوفيةٍ بشبكةٍ
تحولُ دُونَ الصَّعُودِ منها والنزولِ مِنَ الجوِّ إليها ، يتوسطُ هذه الرحبةَ
فَسَقِيَّةٌ ، عليها تماثيلُ لأربعةٍ سباعٍ من الذهب ، يسيلُ الماءُ مِنْ أفواهها
كَأَنَّهُ ذَائِبُ اللَّجَيْنِ ، وقام على حاقها تماثيلُ مِنْ طيورٍ مختلفة الأَصْنَافِ ،
ولم يجدْ أحداً ، فجلسَ في حيرةٍ مِنْ أمرِهِ ، وعجبٍ مما يَرَى ، وإذا هوَ
يستمعُ لَأَنِينٍ طويلٍ حزينٍ ، فأصغى إليه فإذا هو يسمعُ : « وقد بدا
الحزنُ وظهرَ ، وبُدِّلَ بالنومِ السهرُ ، وحاقَتِ بِي المشقةُ والخطرُ » فنهضَ
قائماً واسترقَّ أَلْطافاً نحو ذلكَ الأَنِينِ ، حتى كَانَ أمامَ مِترِ مُسْبِلٍ فرفَعَهُ ،
فإذا هو أمامَ شابٍّ هو آيَةُ فِي الجَمالِ وحُسْنِ التَّقْوِيمِ ، جالسٍ على سَرِيرٍ ،
ويرتدي قَباءَ مَنْ حَرِيرٍ مطرزٍ بالذَّهَبِ ، فسَلَّمَ المَلِكُ عَلَيْهِ وَحَيَّاهُ ، فردَّ
عليهِ تَحِيَّتهُ ، ورجائِهِ أَنْ يَعدِرَهُ فِي عَدمِ اسْتَطَاعَتِهِ القِيَامَ لِاسْتِقْبَالِهِ ،
فقال المَلِكُ : لَكَ عَذْرُكَ ، وَلَا ضَيَّرَ عَلَيْكَ ، وأرجو مِنْكَ أَنْ تُخبرَنِي أَمْرَ
هذه البركةِ وسَمَكِها وقصرِها هذا ، ووَحَدَتَكَ هذه التي لَا أُنِيسَ لَكَ
فِيهَا ، فَأُجابه الشابُّ بالبُكاءِ المَضْنِي ، الذي يَحرقُ الكُبودَ ، وَيَشقُّ
المرائِرَ ؛ فقال المَلِكُ : وما يَنسُكُكَ . أيها الشابُّ ؟ فقال : كَيْفَ لَا أَبْكِي ،
وتلكَ حَالِي ؟ ! ومدَّ يَدَهُ فَكَشَفَ الغطاءَ عَنْ نِصفِهِ الأَسْفَلِ ، فإذا هوَ
حَجَرٌ ، ثُمَّ قال : سَتَسْمَعُ عَجَباً ، وَسَتَعْلَمُ ما فِيهِ تَبَصُّرَةٌ وَعِبْرَةٌ .

كَانَ وَالِدِي مُحَمَّدٌ مَلِكُ هذه المَدِينَةِ ؛ وَصاحبُ هذه الجبالِ التي
تَحيطُ بِالبركةِ ، قَضَى عَشْرِينَ حَاماً فِي المَلِكِ وَالْحَكْمِ ، ثُمَّ لَحِقَ بِرَبِّهِ ،

وَوَلَّيْتُ الْمَلِكَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَمْلَكْتُ بَابَنَةَ عَمِّي ، وَعِشْتُ مَعَهَا عَشْرَةَ
 أَعْوَامَ ، عَلَى خَيْرِ مَا يَبْغِي الزَّوْجَانِ ، مِنْ حُبَّةٍ وَأُفْقَةٍ وَوِثَامٍ ، وَلَمْ يُعْكَرْ
 صَفْوَةُ هَذِهِ الْحَيَاةِ عَلَى زَوْجِي إِلَّا أَنَّهُمَا لَمْ تُرْزَقْ بِنْتُ أَوْ وَلَدٌ ، وَكَانَ سُجْرَانِي
 مِنَ الْأَصْدِقَاءِ ، وَخُلَطَائِي مِنَ الْوُزَرَاءِ ، لَا يَفْتَاوْنَ يَذْكُرُونَ الْوَلَدَ ، وَيَتَعَوَّنَهُ
 لِي ، وَيَحْبِيُونَ إِلَيَّ الزَّوْاجَ مِنْ فَتَاةٍ أُخْرَى وَلَوْ ، حِرْصًا عَلَى مُلْكِي ،
 وَخَشْيَةً أَنْ يَنْقَطِعَ حَبْلُهُ بِانْقِطَاعِ نَسْلِي ، وَتُشْرِقَ شَمْسُ هَذَا الْمَلِكِ فِي
 بَيْتِ عَدُوِّي مِنْ بَعْدِي ، فَزَوَّجْتُ مِنْ فَتَاةٍ يَرِفُّ عَلَى يَدَيْهَا الْأَمَلُ
 الْبَاسِمُ ، وَأَرَصُدُ فِي سَمَائِهَا الْكَوْكَبُ الْقَادِمُ ، وَكَانَتْ زَوْجَتِي الْأُولَى مَاهِرَةً
 فِي السَّحْرِ ، فَدَفَعْتُهَا مَوْجَةَ الْغَيْرَةِ إِلَى أَنْ جَعَلْتَنِي كَالطَّائِرِ الْمَهِيضِ ، يَلْتَصِقُ
 بِالْأَرْضِ وَبَصَرُهُ فِي الْفَضَاءِ ، وَمَسَخَتْنِي بِالسَّحْرِ عَلَى نَحْوِ مَا تَرَى ،
 وَمَسَخَتِ الْمَدِينَةَ سَمَكًا ، وَجَعَلْتُ لَوْنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْيَضَ ، وَلَوْنَ الْمَجُوسِ
 أَحْمَرَ ، وَلَوْنَ النَّصَارَى أَزْرَقَ ، وَلَوْنَ الْيَهُودِ أَصْفَرَ ، وَجَعَلْتُ الْجَزَائِرَ
 الْأَرْبَعَ جِبَالًا كَمَا تَرَى ، وَهِيَ تَحْيَا فِي هَذَا الْقَصْرِ ، مَتَمَتَّةً بِحَيَاةٍ هَانِئَةٍ ،
 مَا دُمْنَا بِسَحَرِهَا فِي قَبْضَةِ يَدِهَا ، فَهَزَّ الْمَلِكُ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَبْشِرْ بِالْخَيْرِ
 الْعَاجِلِ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَطْرَقَ مُفَكَّرًا فِي حِيلَةٍ تُعِيدُ الشَّابَّ وَالْمَدِينَةَ
 وَالْجَزَائِرَ وَأَهْلَهَا إِلَى سِيرَتِهِمُ الْأُولَى ، وَتَقْضَى عَلَى تِلْكَ الزَّوْجَةِ لِيَأْمَنُوا
 مِنْ شَرِّهَا ، ثُمَّ أَخَذَ يَجُولُ فِي أَنْحَاءِ الْقَصْرِ بَاحِثًا عَنْهَا ، فَالْفَاحَا جَالِسَةً فِي
 فِي حَجَرَتِهَا ، مُتَلَفَعَةً بِفَضْلِ كِبَرِيَّاتِهَا وَسُلْطَانِهَا ، فَسَلَّمَ وَحَيًّا ، فَعَجِبَتْ
 أَنْ جَاءَهَا هَذَا الْإِنْسَانُ ، وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ الْمَدِينَةَ مُسَخَتْ ، وَلَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ
 مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَبَدَأَ عَجَبُهَا فِي نَظَرِهَا وَسُهُومِهَا ، ثُمَّ قَالَتْ : مَنْ أَنْتَ ؟

وما جاء بك إلى هنا ! فقال مابرُ أوتيتُ الحكمةَ ، أوى إلى هذا القصرِ مُبتغياً راحةً ، فقالت : وهل عثرتَ فيه على أحدٍ غيرى ؟ فقال لم أرَ غيرَ وجهك الكريم ، فقالت : اجلسْ على هذا الكرسي ولا بأسَ عليك ، ثم سألت : وما أوتيتَ من الحكمة ؟ فقال أوتيتُ علماً لا أدفعُ به أثراً لِمُقيمٍ لدى زوجٍ أو زوجة ، فقالت : ولو كانَ هذا المقيمُ بيدهُ المهدِ بصاحبه ، فقال : ولو أنه عجوزٌ عقيم ، فقالت : إني ماهرةٌ في السحر ، وستعلمُ من قصتي مبلغَ قوتي فيه وقدرتي ، ثم قصتُ عليه تاريخها وتاريخَ زوجها ، وما فعلتهُ من المسخِ في ملكه ومُدنه وشعبه ، فقال : لئن أرجعتَ زوجك وملكه ومُدنه وشعبه إلى حالتهم الأولى ، ولم تعلقِ من زوجك في مدةٍ شهرٍ فلكَ أن تَسخِجهم وتَسخِجني معهم كما تشائين ، وإني أبشركَ بِنِلامٍ زكى ، يكونُ لكِ قُرّةُ العين ، ومَسرةُ الفؤاد ، فقالت : لئن لم تفعلْ ما وعدتني به لأُسخنك خنزيراً تنشى المزابِلَ ، وتطعمُ أقدرَ الزاد ، فقال : لكِ ذلك ، ولا أزالُ أبشركِ ، ثم استأذنته أن تذهبَ إلى حجرةٍ أخرى ، لتُثْلُو ما تعرفُ من آياتِ سحرها ، وما لبثتُ غيرَ فترةٍ قصيرةٍ ، حتى رأى الحالَ قد تغيرتْ ، وحاد كلُّ إلى ما كانَ عليه ، وكانَ هذا الملكُ قد خبأ خنجراً حاداً في جيبه ، فلما دخلتُ عليه قال : وأرى ألاَّ تُقابلي زوجك الذي لم أره ، حتى أُنْفِي بوعدي مَعك ، ولا يأخذُ علاجِي لِمُقيمك ، إلا بمقدار ما أخذتَ من الوقتِ في إرجاعِ المدينةِ والجزائرِ إلى ما كانت عليه ، ثم أجلسها على كرسى أمامه ، ووقفَ من خلفها ، يمسحُ يدهُ على رأسها ، وهو يقرأ ما يقرأ ، ثم سَلَّ

خنجره من بَيْتِهِ ، وغرزه في صدرها ، فخرت على الأرض جثة هامدة ،
 وتركها إلى الشاب يهيمه بسلامته ، وقتل زوجته ، مبعث شقوته ،
 وبلاء قومه ، ثم قال للشاب الذي كان مسحورا ، هذه نعمة الملك والحياة
 السعيدة قد رجعت إليك ، وهذه زوجتك الغادرة الجاهلة ، قد قضى
 عليها غدرها ، وساقها إلى حتفها ، وإني أستودعك راجيالك التوفيق
 والسلامة ، فقال الشاب : إن صحتي إياك أحب إلى نفسي من ذلك
 الملك الذي تراه ، ولن يفرق بيني وبينك إلا القضاء المحتوم ، وكما كنت
 سبب حياتي فأنا من الساعة ابنك ، الذي لا يترك صحتك ، فقال الملك :
 وإني لسعيد بهذه البُنة ، وأحمد الله الذي وهب لي على الكبر شابا
 زكيا ، يرثني من بعدي ، ويخلفني في ملكي ثم أعلن الشاب في قومه ،
 أنه ذاهب لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، واستخاف فيهم أكبر
 وزرائه ، وسافر مع الملك إلى بلاده ، وهناك وجد قومه على أحر من
 الجمر ، في انتظار أوبته ، فاستقبلوه فرحين مستبشرين ، ولما استقر به
 المقام قص على وزيره ، ما جرى في غيبته ، وأمر أن يحضر إليه الصياد ،
 الذي كان سببا في نجاة المدينة والجزائر من كيد الزوجة الغادرة ، فأسبغ
 عليه نعمة ظاهرة وباطنة ، وأدنى منه منزلته ، وسأله عن أبنائه ، فقال :
 رزقني الله ابنا وبنتين ، جعل الملك ابنه على خزان ملكه ، وتزوج
 إحدى بنتيه ، وزوج الشاب بنته الثانية ، واتخذ عميد وزرائه ، وطابت
 لهم الحياة على هذه الحال ، وكان الله على كل شيء مقتدرا .

www.arabiccartoons.net

الف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التي تنتمي إلى التراث الشعبي.. والتي نالت إهتماماً عالمياً في الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التي تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التي توجد في طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذي تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها :

- | | |
|---------------------|-----------------------------------|
| ١ - شهرزاد ودينازاد | ٧ - عبدالله البري وعبدالله البحري |
| ٢ - السندباد البحري | ٨ - أبو الحسن وجاريتة تودد |
| ٣ - قمر الزمان | ٩ - الحصان المسحور |
| ٤ - الصياد والعفريت | ١٠ - علي بن بكار وشمس النهار |
| ٥ - معروف الإسكافي | ١١ - علي الزئبق ودليلة المحتالة |
| ٦ - الأحذب والخياط | ١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب |
| | ١٣ - علي بابا |



دارالمعارف

قرش جنية

قرش جنية
٢.٥٠